حب لا يفهم الكلام

حينَ لا ينفعُ البكاء
وقصصٌ أُخرى

أحمد عودة

مجموعة قصصيّة

أحمد عودة

الأعمالُ الكاملة«7»

1973

الطّبعةُ الأولى 1973:

مطبعة الشّروق

عمّان- طريق المحطّة- دوّار النّشا

الطّبعة الثّانية:

دارُ الجيل العربيّ للنّشر والتّوزيع.

2022م.

e-mail: aljeelalarabi@yahoo.com

مراجعة وتحقيق: مظهر عاصف.

جميعُ الحقوق محفوظة للجمهور.

تنويه عابر:

يُسمحُ للقارئ بإعادة إصدارِ هذا الكتاب وأيِّ جزءٍ منه أوتخزينه واستنساخه ونقله، كليّا أو جزئيا، وفي أيِّ شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونيّة أو آلية، أو الاستنساخ الفوتوغرافي، والتسجيل واستخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، ولا يلزم الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر بناء على رغبة المُحقّق.

التّعريفُ بالكاتب:

هو الأديبُ الأردنيّ الرّاحل «أحمد عودة» من مواليد قرية إذنبَّة -الرّملة- فلسطين المحتلّة- عام 1945. ويُعدّ أحد أعمدة رابطة الكّتاب الأردنيّين، وأحدَ مؤسّسيها الأوائل، وعضوًا في اتّحاد الكتّاب العرب منذ عام 1982. احترفَ كتابةَ القصّة والرّواية ونصوصِ المسرح قبل احترافه كتابة المسلسلات المتلفزة، ويعتبرُ من روّاد المشهد الثّقافيّ الأردنيّ فقد كانَ يرفدُ الصّحف والمجلات الأردنيّة والعربيّة بمقالات نقديّة أدبيّة، وببعض البحوث الفكريّة واللّغويّة.

تمَحوَرت أعمالُه الورقيّة حول القضيّة الفلسطينيّة بشكل كبير، وإن تطرَّق من خلالها لكينونة الإنسان وعلاقته مع الأرض والآخر في كلّ مكان، ناهيك عن قضايا الأمّة العربيّة بمجتمعاتها وهمومها المشتركة، وامتازت لغتُه العربيّة بالجزالة السّلسلة كانعكاسٍ تامّ لمهنتهِ الّتي مارسها كمدرسٍ لها في مدارس القدس وعمّان حتّى تقاعده، وتفرّغه الكامل للإنتاج الأدبيّ.

الأديبُ من أوائل الرّوائيّين العرب الّذين اتّجهوا لكتابة المسلسلات التّلفزيونيّة مواكبةً منهم لعصر الصّورة والصّوت، ومن الرّواد الّذين نقلوا اللّهجة الأردنيّة العاميّة والرّيفيّة والبدويّة عبر مسلسلاتهم إلى الشّاشات العربيّة.

هذا وقد مارس الكتابةَ الإبداعيّة طوال حياته قبل أن توافيه المنيّة في «حيّ الرّبوة- ماركا الجنوبيّة- عمّان- الأردن». في مساء 9 نيسان من عام 2016م.

مؤلّفاته الورقيّة «الطّبعة الأولى»:

حين لاينفع البكاء- قصص- عمّان- مكتبة الشّرق-1973.

زعترالتلّ- قصص- عمّان- رابطة الكتاب الأردنيّين- 1979.

المنعطف- قصص بغداد- وزارةالثّقافة- 1980.

الولادة والموت- قصص- دمشق-اتّحادالكتاب-1982.

جمجوم- قصص- بغداد- وزارة الثّقافة والإعلام- 1982.

ساعات الصّفر- رواية- بيروت- دارالوحدة- 1983.

الفواصل- قصص- دمشق- اتّحاد الكتاب العرب- 1984.

الكلب المخدوع- قصص للفتيان- عمّان- دارابن رشد- 1986.

عيون المدافع- قصص- دمشق- اتّحاد الكتاب

الفخّ- قصص- عمّان- وزارة الثّقافة- 1996.

الباشكّار- رواية- عمّان- دارالينابيع- 1996.

مسرحيّات:الكنـــــز، أصـل المسألـة، شلـّةالأنـس.

أفلام تلفزيونيّة:

المريض، عذابـات حَلُـوم، طلقـةُ الرّحمـة، الانتظـار.

أهم المسلسلات المُتلفزة:

ويبقـى الأمـل- باللّهجة الأردنيّة.

الفـرح المنسـيّ- باللّهجة الأردنيّة.

الحائـــــر- باللّهجة الأردنيّة.

حــارةالزّيـن- باللّهجة الأردنيّة.

الرّيحانيّـــة- باللّهجة الأردنيّة.

خطّ النّهاية- باللّهجة الأردنيّة.

خطّ البدايـة – باللّهجة السّعوديّة.

الزّمن دوّار- باللّهجة السّعوديّة.

مرايـــاالحـبّ- باللّهجة المصريّة.

هـذا قـراري- باللّهجة السّوريّة.

الأمانـي المرّة- باللّهجة السّوريّة.

الإهداء:

إلى الّتي قالت لي ذات مرّة:

«علينا أن نعيشَ في الواقع وإلّا حطّمنا الخيالُ تحطيمًا»

فعرفتُها تغلقُ عينيها في وجهِ الشّمس لتحلمَ بالضّياء.

إلى «ف».

المُقدّمة:

لا شكّ في أنَّ القصّة القصيرةَ من أكثرِ الفنونِ التصاقًا بالإنسان المُعاصر؛ لأنّها فنّ العصر بما يحتويه من سرعةٍ ومفارقاتٍ وتناقضاتٍ وقضايا، فهي «بحسب فرانك أُوكونور- أحد أشهر نقّادها» الصّوت المنفرد.

فكاتبُ القصّة يلتقطُ جزئيّاتِ الواقعِ ليصنعَ منها عالمًا موازيًا في بناءٍ لغويٍّ وصوريٍّ مائز، يتجاوزُ حدودَ الزّمان والمكان؛ وإن بدا متموضعًا فيهما، لينطلقَ في فضاءات شاسعةٍ تحاولُ التقاطَ الخفيِّ والمستترِ والمسكوت عنه، وحتّى المستقبليّ الّذي لم يتجسّد واقعًا بعد من خلال الاستشراف والاستبطان؛ اللّذين يمثّلان عيني القاص الفاعلتين داخلَ المتنِ القصصيّ. مِن دونهما يستحيلُ القصُّ إلى سردٍ تسجيليّ يفتقرُإلى البصمة الذّاتيّة للقاص، ذلك أنّنا حين نقرأ نصًّا قصصيّا لا نقرأه بعين الواقع، وإن كان تعبيرًا عنه بشكل أو بآخر، وهنا تكمنُ القيمة الجماليّة والفلسفيّة للأنواع الأدبيّة عامّة.

مجموعة «حينَ لا ينفعُ البكاء» باكورةُ أعمال القاصّ والرّوائي الرّاحل:أحمد عودة، مِن المجموعات القصصيّة الّتي تجذبُك منذ القصّة الأولى من عالم الواقعِ المحسوس، إلى عالمٍ موازٍ يتركُ نوافذَه مشرعةً على الواقع، ليبقيك مُعلّقا في منطقة البين بين، فالأحداثُ والشّخوص والأماكنُ تنتمي برمّتها إلى عالمِ الواقعِ الماديّ؛ بيد أنّ الفضاءَ النّفسيّ المُهيمن على مجمل المجموعة فضاءٌ مُتخيّل تفنَّنَ الكاتبُ عبرَ لغته المتدفّقة وأسلوبه الرّشيق في بناء تفاصيله، وعلى الرّغم من تنوّع القصص وموضوعاتها داخل المجموعة ينسربُ بين يدي القارئ خيطٌ دلاليّ رفيعٌ يشدُّ إزارَ البنية المضمونيّة؛ الّتي تمحورت بشكل رئيسٍ حول صراعِ الإنسان الوجوديّ مع الآخر؛ هذا الصّراع الّذي بدأ منذ بداية الخليقة مع إزالة السّتارِ عن أوّل مشهدٍ دمويٍّ بين

قابيل وهابيل، مُخلّفًا وراءَه إحساسًا مُتّصلا بالفقد والفجيعة؛ لم يستطع الإنسانُ تجاوزَه على مرِّ العصور وتعاقبِ الأجيال، ذلك أن ثنائيّةَ الخير والشرّ المُنبثقة عن ذلك المشهد ما زالت تتكرّر بصفةٍ فرديّة كما هي الحال مع الطّغاة والمتنفّذين على المستوى الشّخصيّ، وصفةٍ جماعيّة كما هي الحال مع سيادة أنظمة عنصريّة دكتاتوريّة لا تؤمن بوجودها إلاّ من خلال إزاحة الآخرين، وفرضِ هيمنتها بمنطقِ القوّة والتّرهيبِ كما هو الحال مع الكيان الصهيونيّ.

ونحن إزاءَ هذه المشهديّة المتأزّمة نجدُ أنّ البكاءَ لا شكّ لن يجدي شيئا، كما يشيرُ عنوانُ المجموعةِ القصصيّة والّذي كان عنوانا لأولى قصصها؛ الّتي جاءت لتجسّدَ هذه القضية الوجوديّة بشكل عميق، ويكونَ الخيطَ الدلاليّ الواصلَ بين مختلف ثيماتِ قصصها الأخرى.

فالمواجهةُ في ظلِّ واقعٍ غير متوازن القوى لن تجدي شيئا، ولذلك نجد الانحياز إلى واقعٍ افتراضيّ يرتكزُ على الأوهام باتَ الخيارَ الوحيدَ في هذه المعادلة «إذن فالرّجال مثله كانوا يخفون الحقيقةَ خشيةَ العار، يتوهّمونَ أنّ لهم قطعانًا في البيوت، كلّهم كان يقتلهم الوهم».

تتناوبُ قصصُ المجموعة بعد ذلك بالتقاط البعدِ النّفسيّ للشّخصيّات المتنوّعة للتّعبير عن أنَّ المعاناةَ الّتي يخوضُها الإنسانُ المعاصر لم تنحصر في فئةٍ معيّنة دون أخرى، فالمرأةُ والرّجل صنوان في مكابدةِ المصير المحتوم، وإن كانت المرأة أشدَّ استلابًا في ظلِّ مجتمعٍ ذكوريّ يجرّدُها من أبسط حقوقها الإنسانيّة؛ ولا يُنظرُإليها إلاّ بوصفها سلعةً كما جاءَ على لسانِ الرّاوي؛ وهو يجسّد مشاعرَ بطلةِ ثاني قصص المجموعة «ولكنّها العاداتُ في الرّيف الّتي لا تنفكّ تذكّرها بأنّها لم تكن سوى سلعـةٍ في نظر أبيها؛ الّذي باعَ قبل أسبوعين بقرةً بنفس الطّريقة الّتي باعها هي» وتأتي محاولةُ زرعِ شجرةِ الصّفصاف من قبلِ البطلة مُعادِلًا موضوعيًّا لمقاومةِ الجدبِ واليباسِ في

محاولةٍ لوقفِ سريانه بين عروقِها، لكن دونما جدوى. فالعاصفةُ أقوى من ذلك الجسدِ الهزيل.

ومثلما لم يُجدِ البكاءُ نفعًا في القصّة الأولى؛ لم تُجدِ محاولةُ الصّمود بوجه العاصفةِ المُحيلةِ إلى سلطةِ الواقعِ الاجتماعيّة والتّراثيّة، لإعادةِ نسغِ الحياةِ والاخضرارِإلى قلب المرأة.

وكذلك الحالُ مع باقي قصص المجموعة الّتي كان فيها العجزُ والاستلابُ المسارين المُهيمنين على فضاء القصّ؛الّذي اتّسم بوعيٍّ سرديٍّ عالٍ بأدواتِ الاشتغال فلم يطغَ الحوارُ على الوصف، بل عزَّزَ وظيفتَه في إضاءة الحدث وبلورته.

ولذلك جاءَ البناءُ القصصيّ مُتماسكًا، ونجحَ في تفعيل عناصر السّرد كافة، كالزّمان والمكان والشّخصيّات والحبكة، الّتي أتقنَ القاصُ زمَّ أركانها على الرّغم من انحيازه نحوَ اختيار نهاياتٍ مفتوحةٍ في الغالب؛ بما يتيحُ للقارئ إعمالَ خيالِه وتحفيزَ حسِّ التّلقّي لديه؛ للتّفاعل مع النّص تفاعلًا يُمكّنه من ملءِ فجواتِه وإغلاقِ دوائره.

ولعلَّ ليس ذلك ما يُميّز تلك المجموعةُ القصصيّةُ بحسب رؤيتنا؛ بقدر تميّزها لغويّا، إذ إنَّ المتمعنَ في لغةِ الكاتبِ يستأنسُ وراءَ ذلك البناءَ السّرديّ مُبدعًا مُتمكّنا من لغتِه؛ الّتي تجمع بين الحداثة والكلاسيكيّة في نسقٍ جماليّ يشي بروح شعريّة تنساب تحت ملاءة السّرد؛ بما تكتنزه من خيالٍ خصبٍ وصورٍ شعريّة متناثرةٍ بين طيّات المتن السّرديّ؛ من ذلك قوله في قصّته المُعنونة بجنازة شتاء «الشّمس أطفأتها الغيومُ السّوداء الكثّيفةُ وضبابٌ أعمى يذرعُ الفضاءَ بأقدامٍ ثقيلة؛ يضمُّ ذراعية على برودة قاتلة، يقرعُ الأبوابَ الّتي انغلقت على ساكنيها الّذين تحلّقوا من حول المدافئ يدرأون بها البرد». فهذه الصّور الحركيّة هي صورٌ شعريّة بالدّرجة الأساس، لكنَّ تموضعها داخلَ المتن السّرديّ منحه بُعدًا جماليّا ممّا يرسّخ الحمولةَ العاطفيّة ويعزّزُ البعد الإنسانيّ فيه.

ولا يُمكن الإحاطة بمجمل السّمات الفنيّة في سطور هذه المقدّمة المُقتضبة، الّتي هدفت إلى إضاءةِ الطّريق أمام القارئ قبل دخولِه مفازاتِ مجموعة قصصيّة، يتوجّبُ على قارئها قبل الشّروع بقراءتها الانتباهُ إلى قضيّتين مهمّتين؛ الأولى زمنُ كتابةِ القصص الّذي يعود إلى سبعينيّات القرن المنصرم، فضلًا عن كونها باكورة أعمال الكاتب في المجال القصصيّ، الأمر الّذي يثير كثيرا من الدّهشة والتّقدير للحرفيّة الواضحة لدى الأديب الرّاحل: أحمد عودة، وينمُّ عن ثقافة فنيّة وإبداعيّة ولغويّة نادرة ستثبتُ جدارتَها في قابل الأيّام.

د. فاتن الشوبكي.

حينَ لا ينفعُ البكاء

في اللّحظة الّتي دخَلَت عليه ابنتُه الشّابة، قرأ على وجهها ما يمكنُ أن يكون إطارًا لأفكارٍ تجوبُ رأسَه منذ أن فتحَ عينيه من نوم دخيل؛ يغرقُه كلّ ليلة في كابوس واحد لا يتغيّر. يلطمُ وجهَه فوق جثّة ابنه المضرّجةِ بالدّماء، ويحملقُ برعب في علامة القطّ المرسومة على جدران الحظيرة؛ وعلى واجهة القصر المحاط بخَندقٍ مائيّ عريض، يحاولُ أن يقطعَه فيغرق ثمّ يصحو.

سأل ابنتَه بلهجةٍ ممطوطة وهو يقضمُ شعراتٍ مُتهدّلة من شاربِه الكثّ.

- هل من شيء هناك؟

سكوتُها وتطامنُ رأسِها جعلَه يبصقُ بشدّة ما علِقَ على لسانه من شعر.

- تكلّمي.

جَفلَت وتراجعت مذعورةً فلامَ نفسه على هذا العنف؛ الّذي يعلم يقينا أن لا يدَ لها فيه.انحنى قلبُه بسرعةٍ إلى العطف الشّديد مادًّا نحوها ذراعيه، لتجثو بدورها على ركبتيها وتجهش بالبكاء.

- الجَمَل... سُرِق الجَمل.

همهمَ بضحكة مغلولةٍ فيمَا شرَع يمسحُ على شعرها المسترسل، ثمّ توقّفت يده على خصلة نافرة، جذبَها بعنف وصاح:

- الجَمَل أيضا؟

ندّت عن الفتاة صرخةُ ألم أعادت إليه صوابـه، فعاد يمسحُ على شعرها في حنان بالغ، قبل أن توقظَ نهنهتُها بالبكاء أفكارَه الّتي نهضَت من النّوم معه؛ وكلّها كانت تحوم حول الجمل. لم يتبق غيره في الحظيرة الّتي كانت تعجّ بأصناف الغنم والبقر والخيل. كلّها اختفت في فترات متقاربة، وحين حاول ابنُه الوحيد أن يسهرَ ليحميها وجده في الصّباح مقتولًا؛ وبدمائه رسُمِت علامةُ قطّ على جدران الحظيرة، وهي ذات العلامة المرسومة على واجهة القصر المتربّع على التلّة.

كان يراها وهو سائرٌ بالقطيع إلى السّهول فلم يفهم لها معنى، ولمّا اختفى القطيعُ ظنَّ يراهـا أثناء مروره كلّ صباح بالجمل، ثمّ وهو عائدٌ به في المساء مُحمّلًا بالحشائش كغذاء للقطيع الوهميّ؛ يدّعي بأنّه احتجزه في البيت بقصد الرّاحة.

لا يشعرُ بالحرج سيما وأنّ غيره من الرّعاة سبقوه إلى احتجـاز قطعانهم في البيوت؛وها هم يزورون السّهول بالجمال وحسب. لذا كان عزاؤه بالجمل كبيرًا إذ يسمح له أن يدخلَ السّهول كلّ يوم، كما كان يستيقظُ على رغائه الحزين ينعى به القطعانَ الذّاهبة، ولمَّا لم يسمعه صباحَ اليوم توقع شرًّا، بيد أن حلاوة الوهم طمست مرارةَ الحقيقة إلى أن دخلت عليه ابنته؛ فشرب مِن على وجهها تلك المرارة صرفًا.

كانت أصابعُه ما تزال تمسحُ على شعرها فتقلّصت على ذات الخصلة. ارتعدت فرائصُ الفتاة فقفزت من الألم وقفزَ هو إلى البـاب. غرس أصابعَه في عارضتيه فورَ أن رأى الحظيرة خالية؛ وعلامـة القطّ مرسومة على الجدران.

جعلَ يحدّق فيها بذعر مَشوبٍ بالغيظ، وتناهت إلى خياله مرسومة على واجهة القصر. فـار الغيظ من قمّة رأسه «لا بدّ أنّ القطيعَ كلّه هناك وكذلك

الجمل، كم يودّ أن يخلّصَه، ولكنّه الخندق اللّعين سيمنعه من الوصول كما أنّه لا يتقن السّباحة، أمّا إذا غرق فستضيعُ ابنتـه، ستضيع على الأبواب، وستتبعثر أشلاؤها على الأزقّة الملتوية في بطن القرية، ولولا ذلك، لولاها لسهِرَ في الحظيرة حاميًا القطيع».

أرسل بصرَه إلى السّهول المُمرعة فأضافت بمنظرها الجميل إلى نفسه مثقالا غير قليل من الهمّ...تذكّر الأيّام الجميلة الّتي كان يقضيها بصحبة القطيع يرعاه؛ حيث خلقَ الزّمن الطّويل بينهما لغـةً مفهومة، يحكيها هو في قصبةٍ مثقوبة أثناء رعيه أو هجعته في الخضرةِ السّاحرة، ويردّ عليه عبرَ تحفيزه على الرّعي أو الرّقاد، أو التجمّع عند المساء لغاية الرّجوع إلى البيت.

كان بدوره يفهم ثغاءَ الشّياه وصهيل الخيل وخوار البقر، فيوردها ماء العين لتشرب؛ أو يلحظ حركتها المذعورة فيستعدّ لذئب يتربّص. كثيرًا من الذّئاب قتل وعلّق جلودَها على جدران الحظيرة بيد أنّها اختفت كما اختفى القطيع، لكنّ الفاعل واحد لا محالة: القطّ المتوثّب على جدران الحظيرة، وعلى واجهة القصر.لقد غيَّبَ في صدره الحقيقة هذه. «إذ سيلحق به العار لو علم النّاس أنّه خسر كلّ شيء في ظلمة اللّيل؛ وهو الّذي يقتل الذّئاب الجائعة في وضح النّهار، وها هويخسر الجملَ ممّا يعني أنّه لن يخرجَ إلى السّهول، ولن يراه الرّعاة بعد اليوم، ولن يمرّ من أسفل الرّبوة ليشمَّ أنفاسَ القطيع ويسمعَ رغاء الجمل... لن يمرّ».

ضرب عارضتي الباب بكلتا يديه ثمّ انطلق يعدو في الأزقّة.لم ير غير النّساء وقد افترشن التّراب يغزلن الصّوف.نشبت على الفور في حلقه غصّة مريرة. شرع يدخل الحظائر فوجدها خاليـة إلاّ من أكوام الحشيش؛ وإلاّ من علامة القطّ المرسومة على الجدران؛ أمّا عيون النّساء فكان يطلُّ منها الذّعر والتّوجّس.

«لا قطعان في الحظائر، لا بدّ أنّها مع الرّجال في السّهول، ولا بدّ أنّهم إلى الآن ينفخون في عيدان القصب المثقوبة. سيذهب إليهم ليحكي قصّته

المخزونة وسينهض من يعرف السّباحة منهم إلى اجتياز ذلك الخندق المائيّ ليخلّص الجمل والقطيع. سيحكي قصّته من أوّلها على مسامع الرّجال، لا مجال للسّكوت فقد فَقَدَ الجمل والنّهار في أولّه والشّمس تعتلي السّماء بهدوء، ولن يحلّ المساءُ بالتّأكيد قبل أن تُحلَّ مشاكله ويعودَ إلى البيت بابتسامة المنتصر، يمسحُ بها وجه ابنته الحبيبة عوضًا عن نشيجها الّذي يقرع أذنيه، ودموعها الّتي تتساقط على قلبه، ونظراتها الحزينة الّتي تجرح مشاعره... لا بدّ أن يناشدهم ويشحذ هممهم كي تدفعهم الحميّةُ إلى اقتحام الحاجز المائيّ؛ وتخليص قطيعه والجمل من السّارق».

شرَعَ يعدو يستمدُّ من أفكاره قوّة تساعده على الرّكض السّريع؛ وقد هاله بأنّ قامتَه تغرق بين الحشائش، ثمّ راعه أنّه لا يرى أثرًا للقطعان وأنّه لا يسمع أغاني الرّعاة عبر عيدان القصب. فقط رأى سنامات الجمال تعلو الحشائش المتطاولة فتذكّر على الفور الحظائر الخالية وعلامة القطّ المرسومة، وعيون النّسوة الخائفات.

«إذن فالرّجال مثله كانوا يخفون الحقيقةَ خشيةَ العار، يتوهّمون أنّ لهم قطعانًا في البيوت، كلّهم كان يقتلهم الوهم».

استيقظت مصيبته ولها أسنان، فجعل يدور حول نفسه بلا وعي ولم يكفّ إلاّ وأيدٍ كثيرة تهزّه؛ وجسده جاثم على الأرض كجثّة هامدة... استطاع أن يتبيّن وجوه الرّجال فصاح وقد انتفض من مكانه وقد راح يلوّح بيديه ناظرًا إليهم بالتّناوب:

- زرتُ بيوتَكم فلم أجد أثرًا للقطعان وها هي السّهول خالية منها.

رأى تلفّتهم إلى بعضهم، ثمّ رأى تطامن رؤوسهم. عاد إلى الصّياح.

- وليس هنا غير قلّة من الجمال الغارقة في الحشائش المهملة.

ثمّ سكت لحظة وقال بانكسار:

- أمّا جملي فقد سرق في اللّيل.

تقدّم منه أحدهم ووضع يده على كتفه قائلًا:

- مسكين، فلن تدخل السّهول بعد اليوم.

وقال آخر في شبه تأنيب:

- وجملك أيضا أضعته؟

- لم أضيّعه ولكن سرق.

- وأين كنت؟

زعقَ وهو ينقلُ إصبعه بينهم:

- كنت نائمًا مثلَك، ومثلك، ومثلك.

سمعَ غمغمةً واختلاطَ أصوات.

- يتّهمُنا بالنّوم والغفلة.

- ينحي باللّائمة علينا!

- لم يبقَ عليه إلاّ أن يحمّلنا وزرَ إهماله.

ضربَ جبهته بقبضته وغصّ حلقه بالدّموع وهو يقول:

- المهّم أن لم يبقَ لديَّ شيءٌ، وابنتي تذرف الدّموع السّخينة في انتظار عودتي، ولن أعود فارغ اليدين.

- وماذا عساك تفعل؟

- لست بقادرٍ على عمل أيّ شيء بمفردي، كلّنا سنخلّص القطعان، فأنا أعرف السّارق كما تعرفونه أنتم.

تبادلوا النّظرات ثمّ قال أحدهم:

- ولكنّه الخندق اللّعين... لا سبيلَ إلى اجتيازه.

جذبَ شعر رأسه بعنف وقال بنفاد صبر:

- معظمكم يعرفُ السّباحة... أنا لا أعرف.

- السّباحة لا تجدي... سيغرقُ كلّ من تسوّل له نفسه بالمغامرة.

طغت همهماتُ استحسان أخرسَها بالزّعيق؛ فلفَّهم صمتٌ ثقيل بدّده بقوله:

- ما زال لبعضكم جمال، سنستعين بها على قطع ذلك الخندق.

قلقلوا رؤوسهم استنكارًا لهذه الفكرة فصاح محنقًا.

- أما فكّرتم كيف يقطع السّارق الخندق إلى حظائرنا؟

- لم يبق لنا غير قلّة من الجمال، لن نقامر بها.

انفضّوا من حوله تباعًا. بقي بمفرده كفزّاعة في حقول مهملة. طواه صمتٌ رهيب.«سيعود إلى البيت فارغ اليدين، وسيقضي غارقًا في دموع ابنته وفي أحزان قلبه، وسيُحرم من ارتياد السّهول على معزوفةِ رغاء الجمل، ولن يشمَّ بعد الآن قطعًا أنفاس القطيع».

داستهُ الحقيقةُ الرّاهنة بنعلٍ حديديّ فلم يعد يرى الرّجال المُدبرين إلاّ كأشباح مختلطة مخيفة؛ فزايلَ مكانه إلى البيت.

ضمّ ابنته إليهِ يحميها ويحتمي بها من الظّلمة الزّاحفة عليهما.كلّ ما كان بانتظاره هو أن تشرقَ الشّمس كي لا يسمح لهذه الظّلمة بأن تجثم مرّة أخرى على منزله؛ وحظيرته الّتي لن يسمح أن تظلَّ فارغةً ليومٍ آخر.

خليط من الأصوات انتشلهُ من نومه الدّخيل فنزل إلى ساحة الدّار ليرى جماعـة الرّجال تغسلُ وجوهَهم الدّموع... أدرك سببَ توافدهم إليهِ على هذا النّحو فلامَ نفسه أنّه كان بانتظار أفول اللّيل.

14 نيسان 1973

قلبُ العاصفة

الأوّل ليلة منذ عام تقضي ليلَها حزينةً أسيفة بعيدة عن جناحي الأحلام الورديّة؛ وقد خفقَ «ظاهر» بهما بعيدًا عن القرية الوادعة الملتفّة بأشجار الحور والسّنديان؛ إلى العاصمة حيث الصّخب والحركة الدّائبة ودخان المصانع، والنّساء أيضا، النّساء السّافرات ذوات السّيقان العارية تحملُها أقدام رشيقة تمشي على البيضِ فلا تكسره.

«إنّها السّبب في هجرته، لابل عنادُ أبيها كان السّبب حين ضخَّم مهرَها كأنّما هي واحدةٌ من بنات العاصمة.إنّها لا تريد لنفسها شيئا، ولو أخذ برأيها لفضّلت أن تزفَّ «لظاهر» بثوبها المزركش برسوم من الحرير لعصافير كلّ عصفورين منها متقابلان؛ كأنّهما يستعدّان للشّروع في قُبلةٍ طويلة، ولكنّها العادات في الرّيف الّتي لا تنفك تذكّرها بأنّها لم تكن سوى سلعةٍ في نظر أبيها؛ الّذي باع قبل أسبوعين بقرةً بنفس الطّريقة الّتي باعها هي اليوم لرجل ظلّت طوال خمسةَ عشر عامًا – هي كلّ سنوات وعيِها – تراه كما هو أشيب الرّأس مجعّد الوجه، محنيّ الظّهر ليس فيه ما يلفتُ النّظر سوى ثيابه الفاخرة؛ وإلاّ سبحته الكهرمان».

كان دائم الطقطقة بحبّاتها. والنّاس كلّهم _ وأبوها قبل كلّ النّاس _ يعرف أنّه لم يدخل في حياته مسجدًا بقصد الصّلاة الخالصة؛ ومع هذا فقد نعى إليها الخبر.

- الحاج منصور شرَّفنا بالنّسب.

كان ظاهرًا من لهجته الآمرة أنّه لا يأخذ برأيها. ولو هي لمَّحَت بالرّفض لضاع على الفور من أسنانها النّصف. أمّها فقط تعرفُ مؤشّر قلبها إلى أيّ جهة يشير؛ بيد أنّها مثلها ستفقدُ طاقمَ أسنانها الّذي لم تفرح بـه بعد لو هي احتجّت أو حتّى شهقَت مستنكرة.

وحين انطلقَت زغرودةٌ منافقة من حنجرة الأمّ أيقنت «عزيزة»» أنّ أقرب النّاس إليها يضعُها في تابوت قبل أن تفارقَ الحياة.

وما كاد أبوها يوليها ظهرَه حتّى تحرّرت دموعُها غزيرةً ترسم الحزن على وجنتين كان لهما قبل ساعات حمرة الشّفق. نفَرَت من ذراعي أمّها عندما فتحته لتحتضنها مواسية، وانكفأت على الجدار تجهش ببكائها وتهمس في أذنه بذُلّها وتعاستها.

وحين لعلعَت من وسط الحوش عياراتٌ ناريّة أعقبتها زغاريد وأغانٍ من نسوة شامتات؛ وهن يرين الرّبيع المُورقَ يُزَفُّ في هودج شاحب إلى خريف مُجدب؛ جعلت تدقُّ برأسها الجدارَ تودُّ لوتحطّم الرّأس، أو على الأقلّ يزايلُها إحساس بالمرارة يربضُ حلقها ويجثم على صدرها.

وعندما رأَتِ الشّمس وهي ترتمي بين ذراعي المغيب رأت شريط حياتها مُعلّقا بقرصها الواهن؛ تدفنُه معها وراء الأفق فاكتنَفها الظّلام قبل حلول الظّلام مُكتسحًا مساحاتٍ واسعةً من نفسها الّتي ظلّت تتمتّع بشروق الشّمس عامًا كاملًا بأيّامه ولياليه.

إنّها لن تنسى ذلك الصّباح لأنّها لا تنسى صبـاحًا ولِدت فيه؛ إذ كانت تحملُ شجيرةَ صفصاف وتسيرُ في حقلٍ سورُه من أشجارِ الحور الباسقة وارفة الظّلال؛ تبحثُ لها عن مكانٍ بين تلك الأشجار لتسجّل اهتمامَها بالأرض الطيّبة، ولتقضي على احتكار الحور المُلتفّ على مِعصمِ الحقل وكأنّه القدر.

طال بحثها عن المكان المناسب لتنمو شجيرتُها الحبيبة، ولم تكن الرّيح الّتي بدأت سياطُهـا تجلد الأشجار خفيّةً بيدَ أنَّ تصاعدَ عنفِهـا كانَ السّبب بانتهاء البحث؛ لذا اختارت أقربَ مكانٍ إليها...شرعت تحفرُ بين جذعين عجوزين فظهرت الصّفصافة بينهما كالطّفل في خرق الولادة.

وما كادت تثبّتُ الجذورَ الواهنة في إهاب الأرض حتّى هبّت موجةٌ من الرّيح عنيفة لطمَتها؛ بينما تأخّرت يدُهـا حين كانت شجيرتها مُمتدَّةً على الأرض كجثّة طفل حياتُه كانت في الرّحم وحسب...زعقت أغصان الحور بنحيب متّصل كأنّما تنعى النّبتة الجريح. ضمتها إلى صدرها تقيها سياط الرّيح القاسية فيما كانت بوادرُ دموع تتأهَّبُ للانهمال من عينيها؛ وقتَ أن شعرت بخطوات تقترب وسمعت في اللّحظة ذاتها صوتًا مُفعمًا بالرّجولة.

- إنّكِ عبثا تحاولين زرع هذه الصّفصافة في قلب هذه العاصفة.

استدارت بفتور فسقطت نظراتها الحزينة على وجـه باسم يعلو قامة مديدة؛ تقف في وجه الرّياح العنيدة بعناد أشدّ، فشعرت بحزنها يذوبُ وعيناها تلتحمان بعينين سوداوين في نظرة طويلة؛ تقطّعَت تحت سيوفها معطياتُ الزّمان والمكان. تنبّهت على يدها نائمة بين كفّين يشعّ منهما دفـءٌ لذيذ، ورأتـه يشير ضاحكا إلى الصّفصافة القائمة بين حاجز حجريّ أقامه ليحمي النّبتة من العواصف... تنهّدت مرتاحة وهي تسند رأسها إلى صدره الرّحب وقالت بصوتٍ أحسّت به خارجًا من أعماق قلبها.

- أتراها ستعيش؟

جاءها الجواب مؤّكدًا بأن التفَّت ذراعُه حول خصرها تضغط عليه برفق؛ فتخلّلت مشاعرَها فرحةُ الوالدة حين يتحقّق لها حلمٌ طال انتظارها إيّاه.

نَمَت الصّفصافة مع الأيّام وأورقَت كما أورق قلبها، وانتشرت فيه البراعم حتّى كاد ينالُها التّفتّح والنّضج؛ لولا الصّخرة الّتي وضعها أبوها في طريق «ظاهر» ولولا الصّخرة الّتي أهالها على صدرها هي.

أمّا البقرة فهي الأخرى قد خُيِّلَ لعزيزة أنّها تفارق البيت خلف مشتريها وفي عينيها دموع لم تجاهر بها؛ ومع ذلك فقد باعها صاحبها. وعندما جاء مشتريها بعد أيّام يشكو جفافَ لبنها قال له البائع «رزق وأقسام».ظلّت حائرةً في أمرتلك البهيمة الى أن تزوّجت ذلك الكهل فقالت له بعد ما شكا لأبيها جفاف عواطفها نحوه.

«باعك أبي الجسد وحسب. ولن أتخلّى لك عن روحي».

لم تك تعرف أنّ هناك أشياء وأشياء خلف هذا الجلد الرّقيق لولا لسان ظاهر المُدرّب؛ والّذي وقَفَت على مدى صدقه بعدما ذهب تاركًا له كلّ هذه الملكيّة على قلبها ودمائها، حتّى اكتشفت أنّها لا تجد من تبثّه حرمانها غير تلك الصّفصافة الّتي غرسها بيديه، وأرضعَها من أنفاسه، والّتي خُيّل إليها أنّها تقاسي حرمانا مشابها دون أدنى شكّ.

وعندما زارت بيتَ والدها رأت البقرة مربوطة في صحن الدّار وأمّها تحلب ثديها الممتلىء؛ فداخلها ارتياح عجيب وهي ترى السّكينة تغلّف جسد البهيمة. تفاءلت حينها أن تعود روحها الضّائعة إلى موطنها الأصيل. وقبل أن تسكب ما تقدَّم من مشاعرها وما تأخّر في أذنيْ أمّها بادرتها هذه بالقول آسفة.

- اليوم فقط تأكّد لي أنّ أباك كان على حقّ في أمر زواجك.

انفرجت شفتاها عن ابتسامة مرّة لهذا الّذي اعتبرته من أمّها تعزية، إلاّ أنّها استطردت تقول في شبه تأنيب.

- كأنّكِ لم تريْ العروس الّتي جاء بها «ظاهر» من المدينة.

انطبقت شفتاها كأنّما تلقّت صفعةً مفاجئة...ظلّت للحظات شاردة اللّبِّ وسط الأرجوحة الّتي رمتها أمّها إليها... صاحت.

- ظاهر؟ عروس؟

فضحكت الأمّ في غلّ وقالت:

- فتاة تمشي هِز ياوِز.

ظلّت تحس بمطارق تهوي على رأسِها وهي بين التّصديق والتّكذيب؛ لولا أن انطلق في تلك اللّحظة نفيرٌ متّصل لسيارة مسرعة.وجدت ذاتها في عرض الشّارع تلاحق بعينيها الجسمَ المديد مُلتصقًا بفتاة يسبل شعرها الأصفر على كتفين عاريتين.جمدت في مكانها تودّع أحلاما رأتها تداس تحت العجلات المتسارعة، ثمّ خلعت قدميها من على الأرض وجرَت إلى الحقل وهي تقبض بيديها من بعيد على عنق الصّفصافة.

تشكّلت بوادر ريحٍ حولها تكنس الأرض فتثير غبارًا نتنًا حتّى إذا وصلت أوّل أشجار الحور بدت العاصفة في أشدعنفوانها.جرت بسرعة تسابقها ولكنّ هراوة العاصفة كانت قد سبقتها إلى الصّفصافة الّتي وجدتها مطروحة جثّة هامدةً تتسربُ دماؤها من بين حجارة الحاجز المهدَّمة إلى جذور الحور العتيقة.

قيثارةُ الشّباب

أوّل شيء قامَ بهِ حين انتهى إلى منزله من نزهته الّتي قابل فيها «نجوى» صدفةً لأوّل مرّة منذ زمن طويل أن وقفَ أمام المرآة؛ فعكست صفحتُها الصّقيلة وجها غزته الأخاديد والحُفر في أكثر من موقع، وبان في أعلى الشّفتين، أسفل الأنف، وكذلك في مجاورة الأذنين شعابٌ بيضاء تتخلّلها مواضع سوداء كأنّها آثار أظلاف ماعز طاردها ذئب.

أطلق زفرةً حرّى خشخشَ لها صدرُه المزروع من الخارج بغابات من الشّعر الأبيض الخشن،كما هو مزروعٌ من الدّاخل بأكثر من داء؛أبرزُها ذاك الّذي يدفعُه باستمرار إلى السّعال والبصاق في ثنايا منديل كيلا ترى العيون لونه القاني فتنفرّ منه.

هاجمته وهو واقفٌ موجةٌ من تلك الموجات العاتية، فاستلَّ منديله على عجل، ولكنّ عينَ المرآة كانت له بالمرصاد فكشفت له ما يحاول سترَه، لتغوصَ نفسُه في أعماق التّقزز، وقد أطلّت من عينيه بوادرُ دموع تركَها تتجمّع قبل أن يسمحَ لها مُستسلمًا أن تتساقطَ على وجنتيه الغائرتين كمشاركة وجدانيّة شعَرَ لها ببعض ارتياح.

«لم يمت فيه الإحساس والرّثاء لنفسه بعد».تفاجأ حينما حدث نفسه بهذا؛ ولو أنّ من الممكنِ أن تمتدّ يدُ الإنسان لنفسه بالضّرب لصفعَ فورًا هذي النّفس حتّى أدماها؛ لكنّه وجَدَ في يد النّدم خيرَ صـافعٍ يلاحقُ مشاعرَه، ويُسرّع بإشعال ما تبقّى من شعرات سود على رأسه ووجهه، كما ويلحسُ أعصابه بلسانٍ منشاريٍّ، فيجعلها تتقرّح من نسمة هواء رائحة.

أرمضته حقيقةُ أنّه وحيدٌ ورأى بعينيه الدّامعتين وحدتَه تتدثرُ بالشّتاء. طفق ينظرُ في جميع الجهات وقد صوّر له الوهمُ أنّه يسمعُ صراخَ طفل وهدهدة امرأة. سار بخطى غير منتظمة يلمسُ بيديه أشياءَ المنزل النّاطقة بالثّراء علّهما تقعان على شيء من لحم ودم؛على مصدرِ ذلك الصّراخ وتلك الهدهدة.اضطرّ أن يستقبل بوجهه الأرض باحثًا أسفلَ فُرش المنزل الوطيئة؛ ولمّا لم يجد امتلأ صدرُه بـالعجب إذ يسمعُ الأصوات ولا يرى مصدرها.

ألصق أذنيه بالتّبادل بالأرض لظنّه أنّ الأصوات آتية من بطنها. انقطَعت فتعجب أكثر، وازداد عجبُه حين استقام فعادت إلى قرع أذنيه من جديد. حينها طفقَ يجري ضاربًا بيديه الهواء إلى أن تعثّر بالسّرير فسقطَ عليـه منهوكَ القوى قبل أن يجهشَ ببكاء مُرٍّ رددته جدرانُ المنزل الخالي؛ وصبّته في مسامعه نُباحًا مُتّصلا لألف كلبٍ جعلت أصواتُها تتهـانَفُ بالتّدريج حتّى ابتلعها ملاكُ النّوم.

عندما استيقظَ ألفى نفسه منبطحًاعلى وجهه، تذكّر الحلمَ الجميل الّذي تسرّب من ثقوب النّوم فوجد فيـه تلخيصًا لأيام الشّباب الرّائعة؛ فلذّ له أن يردّدها كي تؤنسه في وحدة وفراغٍ عادا يدبّان نحوه برؤوس مُسلّحةٍ بمناخسَ حادّة مرعبة. وجد في التّذكر حلاوةً تزيد على تلك الّتي ذاقها في المنام. ملأته نشوةً عارمة وأذناه تستقبلان موسيقا صادرة عن قيثارة طالما عزَف عليها بأنامل مدرّبة أيّام الشّباب؛ الّتي تواكب تلك الذّكريات فتزيدها حلاوة وتزيده انتشاء بها.

برزَ من بين تلك النّغماتِ لحنٌ مُحبّب جميل زفّ خواطره مُرصّعًا جبينَها بتاج مُذهّب؛ حتّى أجلسها على عرش قلبه الغضّ النّابض بالحيـاة. علت النّغمةُ تنبئ بقادم جَنّدَ كلّ وعيه كيما يراه؛ فرأى وجها بدريًّا يعلو قامةً لدُنةً ترقص بما يوافق اللّحن الجميل.هتف «نجوى» بعد أن هبَّ من رقدته مادّا ذراعيه اللّتين عضّهما الفراغ؛ فلم يشعر بنفسه إلاّ وقد ارتمى على السّرير وجأرت أضلاعُه ناعيةً أحلامَه بالجُملة فلم تفلح محاولته للاسترخاء من جديد.

وجدَ الذّكرى تُكمل نفسَها وعيناه مفتوحتان على رؤوس الوحدة والفراغ، فاندفعَت نحوه حادثةُ يومه حين قابل «نجوى» في عرض الشّارع ومعها صبيّان اختلسا من جمالها قدرًا كبيرًا. تقابلت عيناه بعينيها وظهر عليها أنّها لا تعرفه، غير أنّه تأكّد من سوء ظنّه حين أوقفها وعرّفها بنفسه. لم تتغيّر نظرتُها إليه ولم تلبث أن قالت في شيء من الاحتقار.

- أراهن أنّك لم تتزوّج؟

وافقها في شيء من السّرور ما لبث أن ندِم عليه بعد أن قالت بذات اللّهجة المحتقرة.

- ولا سبيل إلى الزّواج طبعًا.

وأكمَلَت نظرتُها المتفحّصة دورةَ ظنونه حين قالت:

- الشّيخوخةُ افترستك قبل الأوان.

ولمّا رأى أنّها لا ترحمه علاوةً على كونها مصمّمةً على الانتقام منه تركها وصوتها يطارده بالشّماتة.

- الغنى كالشّباب لا يدوم.

ظلّت كلمتُها هذه تصكّ أذنيه بقوّة أشاعَت البرودة في جسده كلّه حتّى شعر بأنّها تنقله إلى ثلاجة مُغلقة؛ تستوطنُ فيها معه كلٌّ من الوحدة والفراغ برؤوس مشرعة قاتلة لا سبيل إلى الخلاص منها. أمّا النّدم فهو ما يحكم ذلك الإغلاق، يقتل أعصابَه ويحمل روحه لتهيم في شعاب الماضي، يلطم فرصا كثيرة مواتية جعلها شبابُه وثراؤه قيودًا تكبّل أصابعه عن العزف على قيثارة تصدح بألحان صانعةٍ للحبّ. الحبّ الّذي تتهافت عليه النّساء كأنّهن فراشٌ

ثراؤهُ الطُّعمُ، وشبابُه الصّنارةُ الّذي يَعلقُ بها الصّيد ما دام فيه الدّسم قبلَ أن يقذفَ به من أجل صيد جديد.

«ونجوى» واحدة من أولئك النّسوة.عزف لها على قيثارة شبابه وغناه حتّى ملّت عزفه لتلك النّغمة العتيقة الّتي تزفّ مشاعرها إلى القبر؛ فقطعت من قيثارته الوتر وتولّت قائلةً إنّ الأحلام لا تشبعها. رأى في عينيها آنذاك حبّا لم يفهمه في أوانه فأطلقه غير آسف... إلى أن رآها اليوم، وكأنّما ألحقت القيثارة بالوتر وهشَّمتها على رأسه لتنحدرَ القطعُ الجريحةُ إلى صدره غيرَ آبهةٍ بالجرح الّذي أحدثته في نفسه، وقد أنشأ يسعل ويسعل دون توقّف؛ حتّى إذا تشنّجت أصابعه على منديله الّذي اصطبغ بلون أحمر قان كانت له عين المرآة بالمرصاد.

21 ايلول 1972

الثّأر

قالت الأمّ في وجوم وبنبرة هادئة.

- اتركوا أجزاء جثّتة حيث بعثرها ذلك الوغد.

ثمّ صاحت بحدّة كأنّما فطنت إلى كون المصيبة أعظم من الهدوء.

- لن تجمعوا الأشلاءَ ولن تُدفنُ الجثّة إلاّ بعد أن تثأروا لأبيكم.

تطامن أولادها الثّلاثة برؤوسهم ينبشون بنظراتهم الحائرة الأرض فتشنّجت أصابع يديها؛ وعادت إلى الصّياح.

- لستم أولادي إن تقاعستم.

ارتفعت عيونهم إليها ببطء ووجل، ثمّ تقابلت منهم النّظرات.قال أكبرهم بصوت واهن ضعيف:

- وكيف نستدلُّ على القاتل لنثأر منه؟

قبضت أسنانها على ضحكة مجنونة حاذرَت أن تفلت منها، ثمّ قالت في هدوء مصطنع:

- هو مَن غادَرَنا الآن. «الجاهليّ» وليس غيره مَن أراد أن يستأثر بالقسم الثّاني من السّفينة؛ فلم تكفه نصفُ الأرباح.

ثمّ استطردت صائحة.

- أبوكم ليس له أعداء... الجاهليّ هو الطّامع الوحيد. الحقوا به واقتلوه لندفن أباكم في الحفرة.

التحمت منهم العيون وزفروا معًا زفرة استياء ثقيلة فصوّبت الامُّ بعدها إليهم نظرة قاسية؛ تراجعوا تحت وطأتها وخرجوا متتابعين ببطء.

مرُّوا بالأشلاء المبعثرة... نظروا إليها اختلاسا. أخفوا وجوههم تقزّزًا.

قال أصغرهم باندهاش بعد سكون طويل ساد بينهم.

- رصاص... وسكين؟!

قال الأوسط:

- تقطيع وتشويه؟!

وقال الأكبر:

- وبعثرة أشلاء؟!

تردَّدَ الأصغر قليلا ثمّ دفع الكلام من فمه دفعةً واحدة.

- فلنلق الأشلاء في الحفرة.

- بل ندعها... ليعرف الكلّ أنّنا على حقّ في طلب الثأر.

غمغم الأصغر بضحكة ساخرة.

- هذه حقيقة يكفي أن نعرفها نحن.

فقال الأوسط في وجل.

- ولكنّه القانون لا يرحم.

- وكيف به يرحم القاتل ويتركه حرًّا طليقا؟

- لم يُعرف القاتل بعد.

- حقًّا مَن هو القاتل؟

لفّهم الوجومُ للحظة. تذكّروا بعدها كلامَ أمّهم فارتمت نظراتهم على صفحة البحر النّائم أسفل الهضبة؛ وانسحبت سريعًا إلى الميناء. رأوا السّفينة جاثمةً هناك وعلى سطحها أجسام تتحرّك. سفينة أبيهم الّتي كان له فيها النّصف قبلَ أن يجيء الجاهليّ مُعلنًا أنّه قتل.هذا الإعلان كان كافيًا أن يقتل مطامعَهم في الإرث فالسّفينة مسجّلة باسمه هو بينما قَبِلَ أبوهم بلقب الرّبّان.

تذكّروا كيف خرج من عندهم وعلى شفتيه طيفُ ابتسامة منعها من الرّقص النبأُ الأليم.تطلّعوا وراءهم عميقًا إلى الأشلاء. ألقوا عليها نظرة أخيرة. قلّبوا أيديهم بحركة آليّة فيها الكثير من العجز؛ ثمّ طقطقوا بشفاههم أسفًا وحزنا وعادوا دون وعي ينظرون إلى البحر والميناء حيث تربضُ السّفينة أمام عرينه.ران عليهم صمتٌ ثقيل بدَّده أكبرهم بلهجة واثقة.

ـ لا بدّ أن الجاهليّ هناك على السّفينة... سأبادر إلى قتله حين تطؤها قدماي.

فقالا مشجعَيْن.

ـ السّرعة في الإنجاز أكثر سلامة.

لفها بنظرة شرهةٍ وقال ضاربًا على صدره بقبضة يده.

ـ وسأكون الرّبّان وصاحب السّفينة في آن واحد.

تبادلا نظرة مندهشة ثمّ نطقا معًا.

ـ أنا من سيقتُله إذن.

فقال وهو يتمدّد على الأرض في استرخاء.

ـ فلتذهبا إذن... سأكون في انتظاركما متى عدتما.

دارا من حوله في حيرة واضطراب ثمّ غمغا بنبرة مرتعشة.

ـ ولكنّه قويّ... قوته ضعفُ قوتنا معًا.

ضحك بانتشاء رافعًا ساقيه في الهواء، ولم يكف عن الضّحك إلاّ بعد أن نبّهاه بإشارة من أيديها؛ حتّى إذا التفت رأى أمّه منتصبة على الهضبة وذراعاها تشدّان خصرها؛ بينما بدا الدخان يتصاعدُ من نظراتها الصّارمة إليه.

ـ تضحك على أشلاء أبيك؟ هذه قمّة المهانة.

هبَّ واقفا ينفضُ بيديه الغبارَ عن ثيابه.

ـ هما أضحكاني.

- بل هو الّذي ضحك بلا سبب.

اندفع نحوهما في هياجِ ثور، وزعق وهو يوجّه إلى كلّ منها لكمة قويّة.

- مجنون أنا إذن؟

وقفت الأمّ بينهم وقد راحت دموعها تغسل وجهها. وقفوا يتطلّعون إلى موقع نظراتها الّتي انصبّت على السّفينة. نكّسوا رؤوسهم وتبعوها حين انحدرت من على الهضبة باتّجاه السّاحل. كلّما اقتربوا منـه كبرت السّفينة وظهرت الأجسام الّتي تتحرّك على سطحها أكبر حتّى إذا أصبحوا على بعد قليل من الميناء هتفوا بصوت واحد.

- آه لو تقع أنظارنا على الجاهليّ.

التفتت إليهم أمّهم وقالت بسخرية وهي تشير إلى رجـل يحرّك ذراعية في كلّ اتّجاه.

- هناك هو.

مدّوا أعناقَهم إلى الأمـام وبحلقوا عيونـهم، ثمّ قالوا همسًا.

- نحن لا نراه.

دقّت الأمّ على صدرها وهي تنتحب.

- أنا العجوزُ كليلةُ النّظر أراه... فكيف لا ترونه؟

- النّهار يهرب... واللّيل قادم وظلمتُه تحجب الرّؤية.

- منارةُ الميناء لاتعرف الظّلمة.. والجاهليّ سيتركها مضاءةً ليلَ نهار حفاظًا على السّفينة.

انقلبوا برؤوسهم إلى الوراء يتطلّعون إلى الأشلاء فغمغمت الأمّ.

- كان بين أيديكم... فتلكّأتم عن اللّحاقِ به حتّى توارى.

فركَ الأصغر عينيه بيديه.

- لم يكن صوتك آنذاك قويّا.

رمته بنظرة ملتهبة ووزّعت ما بقيَ منهـا على الآخرين ثمّ قالت في ازدراء.

- الحقيقة الماثلة تسخرُ حتّى من الكلام.

ثمّ وهي تهدّد بسبّابتها.

- قلت لن يدفن أبوكم قبل الثّأر له.

أولتهم ظهرَها ثمّ سارت فتبعوها تتعثّرُ خطواتهم بالحجارة كما تتعثّر ألسنتهم بالصّمت الثّقيل؛إلى أن تجرّأ الأكبر قائلًا وهو يجثو أمام أمّه.

- فلنصبر إلى الغد فلن يفلت القاتل من أيدينا.

حذا الآخرَان حذوه فدفعتهم عنهـا تغذّي الخطى سريعًا ليتبعوها مطأطئي الرّؤوس لا تصدر عنهم نأمةٌ خلا أطيط الأحذية؛ حتّى إذا انتهوا إلى البيت تمطّت ألسنتهم وانبرى كلّ منهم يصف الطّريقة الّتي يتحتّمُ القيام بها لقتل الجاهليّ؛ والأمّ تشعلُ من دموعها في قلوبهم الحماسَ حتّى طوى أجفانهم النّوم.

لم يستيقظوا إلاّ والشّمس تتكبّد السّماء. دفعتهم أمّهم الى الخارج وسارت من ورائهم عن بعد.لم يسيروا غير قليل حتّى غزت أنوفهم رائحة كريهة مصدرها الأشلاء.راودتهم أنفسهم أن يواروها الحفرة لولا أن تذكّروا أمرَ أمّهم؛ فتركوها مسرعين حتّى انتهوا إلى الهضبة. وقفوا عليها ونظروا إلى الميناء فلم يجدوا أثرًا للسّفينة غيرَ دخـان متعرّج يسبح على بطن المحيط.

رأوا المنارة ما زالت مضيئةً فتبادلوا النّظراتِ سريعًا وانحنوا بشكل أسرع على الأرض يجمعون الحجارة. هرولوا كالمجانين باتّجاه الميناء وشرعوا يقذفون المنارة بها حتّى نفثوا غيظهم. عادوا يمسحون جباهَهم ممّا توشّح عليها من عرق وتراب قبل أن يتسمّروا واجمين أمام أمّهم الّتي تجمع الأشلاء.

ودون كلام بسطَت أمامهم كفّيهـا بما يسبحُ عليها من ديدان؛مسُددةً إليهم نظرةَ ازدراء أعقبتها ببصقة، ثمّ وضَعَت الجثّة في الحفرة وأهالت عليها التّراب.

2 شباط 1973

الظلُّ الأعوج

لمحتهُ من بعيد يجلسُ في الرّكن ذاته من المقهى الّذي تعرّفتُ عليهِ فيه لأوّل مرّة؛ حين لفَتَ انتباهي سحبٌ من الدخان الأزرق تغزو طاقتَي أنفي بكثافة قابضةً على أنفاسي بأصابع حديدية خشنة؛ سيما والمكان مغلقٌ تتوالد فيه السحبُ قبل أن تموتَ وتدفن.

تطلّعت إلى مصدر تلك الغزوة وعلى لساني فيضٌ من الشّتائم بدأت رؤوسها تتململُ للانطلاق؛ بيد أنّها ما لبثت أن ارتدّت إلى أعماقي ندمًا وأسى حين طالعني وجهٌ كالحٌ جامدُ النّظرات، تعضُّ فتحةُ الفم منه على عقب سيجارة بين أصابع يد نافرة العروق أثناء تمسّكها بسيجارة أخرى بكر؛ في طريقها لحريق أقرب إلى مجزرةٍ منه إلى عادة التّدخين.

تحسّست جيبي بحركة عفويّة. أخرجتُ علبة السّجائر.تناولتُ منها واحدةً بلطف كأنّما أعتذرُ لها عن سوء التّصرف الّذي تصادفُه بناتُ جنسها من الجالس في ذلك الرّكن؛ ولمّا لم أجد ولاعتي وجدتها فرصةً للتّحدث مع ذلك الجالس غيرأنّه لم يحوّل نظراته عن جهة لم أستطع تحديدها؛ بل امتدّت أصابعُه تغرسُ في فمه السّيجارة ومن ثمّ دفع إليَّ بالعقب الّذي لم يبق منه سوى «فلتر» حفرته أسنانه بشراسة... تعجّبت من تصرّفه ومعرفته ما أريد دون أن ينظر باتّجاهي، فقلت وأنا أعدّل من جلستي على كرسيّ قبالته.

- قاتل الله السّجائر فإنّها جرذان العمر والمال.

ألقى عليَّ نظرةً من تلك الّتي يضيع المرءُ في اعتبارها إن كانت له أو عليه؛ فتلمّست طريقا أخرى لإخراجه من الصّمت.

- لستَ من روّاد هذا المقهى، فهذه أوّل مرّة أراك هنا!

عاد يراسلُني عبر تلك النّظرة صعبة المعنى ثمّ قال أخيرًا بصوت واهن يقطر لوعة.

- بالعكس، فأنا زبون دائم منذ أكثر من شهرين.

تذكّرتُ أنّي أنا الّذي يدخلُ المقهى لأوّل مرّة. ابتسمت ابتسامةً تعثّرت على وجهه بألف نتوء فطرحتُ مشروع السّرور جانبا؛ وبدَأت أمواجٌ من الغمّ ترمي بهياكلها عليَّ ليسري نتيجةَ ذلك بيني وبينه تيّارٌ من التّفاهم الصّامت ما لبث أن جرى حديثًاغيرَ واضح المعالم؛ بيد أنّه كان كافيا لأن أُدخِلَ صنارتي في خيوط حياته، لأجدهناك فتاةً نثرَ في طريقها الزّهر ففرشت قلبها على دربه، ثمّ أصابه مرضٌ مفاجيء فتحوّلت عنه كما تحوّل أصحاب الصّحة والشّباب الفائر.

حتّى هذا القدر انغلق لسانه على فيض من الأسئلة الّتي طرقت ضميري فاستعضتُ عنها بالحديث عن مشروع قصّة حب؛لم تتأكّد بعد بيني وبين فتاة تبادلتُ وإيّاها النّظرات الّتي تلتها ابتسامةٌ خاطفة؛ سرعان ما ابتلعتها ملامُحها حين ابتسمتُ لها بدوري... ران الجمودُ بيننا ثمّ كسرناها بابتساماتٍ أخرى فظللتُ طوالَ شهر أو يزيد لا أحظى منها بغير الابتسام.

لم أسترسل بذكر أحلامي كلّها فقد قطَعت عليّ تشنجاتُ وجهه حلاوة الحديث، تشنجاتٌ حاول إخفاءها بأن طلبَ لي القهوة المُركّزة، وطلب لنفسه اليانسون، قبل أن يتدارك وجودي وشفتاه تتقلّصان على ابتسامة مرّة.

- للكبار شرابُهم، وكذلك للصّغار شراب.

سحقتني لهجتُه الحزينةُ فقلت مخفّفًا.

- أنت كبيرُ القدر... عظيم.

ابتسم ذاتَ الابتسامة المرّة.

- بالعكس، فالكلّ وتلك الفتاة منهم يرون أن ظلّي أعوج.

وانقضّ على كوبه يحتسيه بمثل النّهم الّذي يتعاملُ به مع سجائره، ثمّ أصرّ على دفع الحساب قبل أن تمتدّ يده إلى عكّازةٍ كانت نائمةً أسفل الكرسيّ. قبض عليها فتقلّصت عضلاتُ جسمه بالضّغط على مقبضها كي ينهض. انغرس طرفُها المُدبّب بمعدن النّحاس في الأرض المُتربة حتّى توارى. أولاني ظهرَه ببطءٍ بعدها وخرج وقد تعلّقت عيناي على حدبَةٍ نبتت في أعلى الظّهر لم ألحظها طوال جلستي معه؛ أخلّت توازنه في المشي فطغت هيئته المتأرجحة _مع ما سبقها من تركهِ إيّاي على تلك الصّورة المفاجئة_ على كلّ لذّة جنيتُها بغسلِ وجهه المغضب بحفنة من سرور.

جعلتُ أستعرضُ ما دار بيننا من حديث وقد حضَرني تشنّجُ قسماتِه حين أتيتُ على ذكر قصّة حبّي الوليد؛ فعلّمتني هذه الحادثة أن أقصد المقهى حتّى إذا ما رأيته يحتلّ ذلك الرّكن جلستُ قبالته وانتظرتُ أن يبدأ الحديث الّذي يشتهي؛ فأشاركه الهجومَ على حوّاء فتنبسطُ أساريره مُداعبًا مقبضَ عكّازته ماسحًا على جرمها حتّى تنتهي أصابعُه إلى طرفها المدبّب.يسألني على إثرها بضحكة دفعت للغم ضريبة باهضة.

- وبعد الابتسامة؟

وعندما أجيبُه بأن لم يتحرّك قطارُ الحبّ من محطّته يسمحُ لنفسه بضحكة أخرى يلتبسُ عليّ معناها؛ وتعود أصابعه إلى المسح على جُرم العكّازة بحنان، ثمّ يقول في همس:

- بعضُ المحبّين يحملونَ سُلَّمَ الغرام بالعرض.. وهم الأشقياء.

ويبعثُ بعضُ انشراحه إلى قلبي السّرور.لذا أقول متلمّسا مخارجَ الحروف:

- إنّني كطحالب البحر لا أسعى للغذاء بل أنتظره كي يسعى إلي.

فيتخلّى عن عكّازته _الّتي لم تعد تنام خلف أو تحتَ كرسيّه_ لفترة وجيزة وتنضمّ كفّاه في تصفيقةٍ خجلى هاتفًا:

- عين الصّواب ما تقوم به، فالسّعي يُذهِبُ الهَيبة.

ينشأ بعد ذلك يتحدّثُ بعد أن تتخلّى شفتاه عن سيجارةٍ تركَها تموت بين سبّابته والوسطى؛ فينسيه الكلامُ أن يُشعلَ غيرها لأقيسَ بذلك مقدارَ سروره الّذي حرّضني أن أسرعَ في المشي بعد أن لمحته بجلسُ في الرّكن ذاته من المقهى.

رحتُ أردّدُ الإجابةَ عن سؤاله الدّائم «وبعدَ الابتسامة؟» محدِّثا إيّاه بعدها بسرور عن قطار الحبّ الّذي غادر هذه المحطة؛ إلى موعد سيزفر في لقاء عند المأذون الّذي سأصحب حبيبتي إليه في الغد؛ من بيتها الّذي تقطنُه وحيدة إلاّ من صورة لي علّقتها على الجدار.

ساعدني الانبساطُ الّذي استقبلني به أن أسردَ القصّة من أوّلها غير ناس أدقّ التّفاصيل. ظلّت أصابُعه تمسح على العكّازة بحنان فيما كان وجهُه شاطئًا للمدِّ والجزر، حتّى إذا ما أتيتُ على ذكر اسم حبيبتي؛ ردَّدَ الاسم وعيناه ترسلان بريقا مخيفًا أشاع الصّقيعَ في جسدي كلّه...لمحتُ الدم يسبح في كفّه ورأس

العكازة المُدرّب منغرس فيها. أشرت بإصبعي إشارة خرساء فلم يظهر عليه أنّه يحسُّ أو يرى.

توسّل للنّهوض بكلّ أعضائه وأولاني ظهرَه الأحدب فانغرست عيناي في الحفر العميقة الّتي تركتها عكّازتُه في أرض المقهى المُتربة.رأيت حفناتِ السّرور الّتي كنت أرشق بها وجهه ترتدّ في عينيّ رمادًا باردًا؛ منبعُه تلك الحفر الّتي تركتهاعصاه فهاجمني شعور بالأسى فظيع، لم أتخفّف منه إلاّ بتذكّري الموعد الّذي رتّبته وحبيبتي في الغد.

قضيت ليلي أضم هــذا الموعد، أقبّله بشغف حتّى إذا أتى صباح اليوم التّالي انطلقتُ في جهة لو أغمَضتُ عيني ما أخطأتها...وهناك في البيت الّذي زرعتُ أحلامي بالجملة لديه وجدتها. وجدت حبيبتي جثّة تدفّقت منها الدّماء من أكثر من موضع، وتجمّدت على جروح غائرة، فانتحرَت لمشاهدتها كلّ آمالي الّتي احتضنتها في المساء.

كانت عيناها مفتوحتين يُطلّ منهما الرّعب فانحنيت أسبلُهما على طُمأنينة كانت ترجوها؛ فاستقبل أنفي في انحناءتي رائحةَ سجائر عطنة بدت أعقابُها مُبعثرةً على أرض المكان ثُركت عليها أسنانٌ شرسة حُفرًا بغيضة؛ وقد اختلطت بشظايا زجاج صورتي المحطّمة... انطلقتُ إلى الخارجِ مُتتبّعًا والدّموع تنسكبُ على كلّ شيء منّي حفرًا عميقة؛ منغرسةً في باطن الأرض المُتربة كتلك الّتي سأدفنُ فيها لا محالة عكازةَ ذاك الرّجل الّذي لن يمشي بعد اليوم بظلّه الأعوج.

٢٤كانون أوّل ١٩٧٢

جرسُ إنذار

لم يكن قضاءُ وقتِ الفراغ في البداية مشكلةً تحسُّ بها «زينب» كما حالها الآن؛ بالرّغم من أن شيئا لم يتغيّر منذ انقضاء أسبوع العسل، ذلك الأسبوع انتزعه «سالم» من بين فكّيْ رئيسه في العمل؛ فهذا الزّوج يخرجُ كلّ يوم مع الفجر ولا يعودُ إلاّ والظّلام يبسطُ على كلّ شيء سوادَ ردائه، وبعدما يكون نهبًا للإعياء فيسلم رأسَه للوسادة، لا ينتزعه إلاّ في فجر اليوم التّالي بعد أن تجبرَه بدورها على هذا الانتزاع.

«لو كان هناك ولدٌ كثمرة لزواج عامين كاملين لبدّدَ وحشةَ انفرادها ولملأ البيت صخبا وضجيجًا؛ ولملأته هي غناءً وهدهدةً فلا بدّ لذلك الصّغير أن يسكت وهو يرتشفُ صوتَها الجميل.

لقد كانت قبل انتقالها إلى المدينة –أيّ قبل الزّواج – تغنّي في القرية للغنم؛ فتتركُ هذه العشبَ والمرعى لترتفعَ آذانها صاغية منتشية بصوتها السّاحر، أمّا هنا فلمن تغنّي والجدران لا تسمع؟ والنّاس في المدينة تستعبدُهم هذه الآلة اللّعينة الّتي يسمّونها المذياع فلا يفارقونه.

الأسبوعُ الّذي قضاه سالم معها في البيت كان يبخسُ الأذنَ حقّها في الاستماع؛ لكنّها ليست مثله فإن لم يتسنَ لها أن تغنّي فيلذّ لها أن تسمع الغناء حتّى من رنين تلك الآلة المعدنية؛ الّتي حرّم سالم وجودها في البيت.

كانت تصحو كلّ فجر على صوت مذياع يتردّد من مكان قريب يتسللُ إلى نوافذ البيت المُحرّم عليها فتحها، فتشعرُ بحنين جارفٍ للغناء، وكذلك للاستماع، حنينٌ يضاعفه المنع فتفرّغ كبتَها في لكزةٍ توجهُها إلى خاصرة الزّوج النائم لينهض بعدَ تجهزيها للفطور، قبل أن تضعَ رغيفين أو ثلاثة في حقيبة جلدٍ متّسخة كطعام له أثناء النّهار.

يزدردُ طعامَه بنهم ويخرج ليعود في المساء موجّها همَّـه الأوّل إلى النّوافذ والسّتائر؛ ثمّ إلى الباب إن كانت يدٌ عالجته بالفتح؛ وعندما يطمئن إلى أنّ العيون لم تتلصّص إلى بيته أو منه يفركُ يديه ارتياحا، ويطلب العشاء ثمّ ينام متجاهلا تلك النّظرات في عينيها؛ الّتي ظلّت ترسلُها خرساء إلى أن كاد صدرها يتفجر لكثرة ما اختزنت فيه من كلام؛ ورغائب تخشى الجهرَ بها.

وحين وصلت إلى حالة الإشباع صاحت في وجهه ذات ليلة بعد ما تجشّأ من التُخمة وقصد الفراش.

- يا أله! حياتُك أكل ونوم!

نظر إليها بعينين نصف مغمضتين.

- وما الحياة غير هذين؟!

- أن تضعَني في سجن تعافُه الصّراصير.

سدّد إليها نظرة ألجمتها فلم يزد أن قال:

- نامي... نامي.

لم تنم في ليلتها تلك وهي تضربُ الأيّام بالسّنين. ظهرَ لها عمرُها حقلًا من القَتاد لا تنبتُ فيه زهرة واحدة،وحضرتها ذكرى الأغنام الّتي رعتها بينما كان بينها كبشٌ واحد يصول ويجول... يأكل القليلَ ولا يعرف النّوم، وحين كانت تغنّي يهرولُ إليها ثمّ يقف إلى جوارها في سكينة العابد، أمّا الغنم فكانت وجوهها تطفح بالبِشر الدائم أثناء تواجدها مع كبشها.

«لمَ لاتحسّ هي الآن بمثل تلك السّعادة الغامرة وزوجها ممدّدٌ بجوارها».
ورمقته وهو نائم تنخسه برؤوس أحلامها المثلومة، تطحنُها ذكرى من ذكريات الماضي والآلام الحاضرة؛ فيمورُ جرّاء ذلك في صدرها دخانٌ من ذلك الّذي أعمى عينيه؛ وأصمَّ أذنيه فلم يعد يرى أو يسمع.

أحسَّت بنفسها ملقاةً على حقلِ حياتها المزروع بالشّوك؛ فلامست أطرافها الدّماء تنزّ ساخنة من جراحها. تفتّحت وليس لها أمل بالتئامها وقد ازداد نزفُها مع إقبالة الصّباح...كان الزّوجُ ما يزال يسحب أنفاسًا ثقيلة ويدفعها في ثِقلٍ أشدّ اختلطَت بصوت أغنية من المذياع المجاور؛ فنغّصت عليها الاستماع العذب، كما رسمت لها سرابا حسبته على عطشها الشّديد ماء؛ فوجّهت إليه لكزةً من كوعها عنيفة، حتّى إذا فتح عينيه فزعًا قالت في حقد وهي تقدّم له حقيبة الجلد المتّخسة وفيها رغيفان.

- قم هذا طعامك.

ولمّا أوصدَ الباب من بعده وهو خارج سمعت صرير المفتاح في القفل يغلقه؛ قفزت إلى ذهنها صورةَ الصّبية في القرية وهم يترصّدون للعصافير؛ حتّى إذا ما اصطادوها وضعوها في أقفاص تحدُّ من طيرانها في الفضاء الفسيح، أو على الأشجار الباسقة وارفة الظّلال، فأرمضتها فكرةُ أنّها كالعصفور يتلهّى بها رجل صبيّ؛ لتجدَ نفسَها تحوم في أرجاء البيت كما يحومُ الطّائر في القفص يبحث له عن منفذ إلى الفضاء.

اشتجرت هذه الفكرة بصوت المذياع الّذي يصدحُ بأغنيةٍ عاطفيّة استطاعت أن تخلّصها من لُجة الفكر؛ فغمَرَاللّحن الجميل مشاعرَها بالجملة وقد توقّفت للحظات مأخوذةً بسحر الغناء. وجدت نفسَها تندفعُ إلى النّوافذ، تزيحُ السّتائر عنها فالتقت عيناها عبر الزّجاج المُغلق بعينين أرجَعَتْها نظراتُهما إلى نظراتٍ مماثلة.

برزت القريةُ أمامها حين كانت نهبًا من عيون الرّجال في القرية، بيد أنّها لم تكن تعرف مدلولها حتّى كشف سالم الغطاء عن مشاعرها. سالم الّذي عاد وغطّاها من دمه البارد بستار أحسّت به اللّحظة ينجابُ في وقفتها عن مشاعر يغمرُها دفءٌ مُحبّب، يزيد في لذّته عينان مشبعتان بطول انتظار وترقّب رافقَها ارتفاعٌ في صوت الأغنية الصّادرة عن المذياع.

لامست تلك المشاعرَ يدٌ ناعمة ما لبث أن نبتت فيها مناخسُ أوجعتها؛ فارتدت إلى الوراء ثمّ عادت إلى مكانها خلفَ النّافذة تسترجع شيئا أحسّت بضياعه منها. كانت العينان بالمرصاد لها فوقعت عيناها هذه المرّة على وجه أسمر تتردّد عليه ابتسامة لها معنى. تراجعَت إلى الوراء مجدّدًا ثمّ عادت إلى موضعها خلف النّافذة تستردُّ شيئا ضاع منها. امتدّت يدُها إلى مقبض النّافذة. أدارته نصف دورة ثمّ تجمّدت يدُها؛ فيما كانت غمامةٌ من الذّكريات تعترضُ سبيل عينيها؛ بينما اهتزّ الوجهُ الأسمر بعد أن برز على الرّأس قرنان معقوفتان كقرني الكبش، سيّد الغنم... ارتفعَ صوتُ المذياع أكثر وأكثر فتراخت يدُها عن مقبض النّافذة. سمعت بعد ذلك صوت تحطّم زجاج؛ أعقبته دماءٌ رأتها تسيل من يدها... جاست بكلّ ما فيها خلال الغمامة الّتي ستقودها إلى القرية حيث الغنمُ والكبش... حيث بإمكانها أن تغنّي لها.

11 حزيران 1971

السّقوط

سؤالٌ واحدٌ كان يدقُّ أذهانَ الرّجال: لماذا تأخّر القادريّ؟ الحيرةُ والاضطراب يتكسّران على وجوههم تحت ضوء القمر المُكتمل.

لماذا تأخّر؟

التفّت ساحةُ كلّ منهم على السّاق، والسّيقان كلّها تتأرجح راسمةً في الهواء آلاف القضايا المترتّبة على هذا التأخّر.

النّسوة افترشن الأرض ينظرن بقلق إلى أقدام الرّجال وهي تركل الهواء. الصّبية امتطوا حافّةَ المصطبة يلكزونها بأقدامهم يحثّونها على السّير، والكبـارُ منهم يدورون بالقهوة المرّة على الرّجال... يرتشفونها بأصوات مسموعةٍ تصارع هديرَ الذّكريات والتّذكر.

لماذا تأخّر؟

الحلقةُ الّتي تكتمل بها الدّائرةُ لم تأتِ بعد. «القادريّ» الّذي اعتادوا أن يجتمعوا كلّ ليلة وهو بينهم ليس موجودًا. لم يحدث له أن تأخّر من قبل.

دائما يحضر في ذات الوقت «ضبط المواعيـدُ غايةُ الرّجولة... مَن يستهن بموعد يستهن به النّاس ولا يثقُ به أحد، والثّقة أساسٌ متين تُبنى عليه أعمالٌ عظيمة كاستخلاص الأرض الضّائعة، وعودة المصنع الكبير إلى ذويه، ومطالب أخرى يتغذّون بها عن الماء والهواء، والقادريّ وحده هو النّجمُ الّذي يُنير في أذهانهم حقائقَ منطقيّة لم تكن لتخطر لهم بدونه».

- إتلافُ الشّعير والقمح بدعوى استصلاح الأراضي حجّة واهية.

- الأجورُ العالية في المصنع ما هي إلاّ خدعةٌ كبيرة.

- يأخذون بيد ما أعطونا إيّاه باليد الأخرى.

- لا يكتفون باحتلال الأرض... يحاولون أن يبسطوا على نفوسنا ظلمةَ الاحتلال.

التمرّدُ ورفض الواقع الرّاهن ما يريده القادريّ؛ وما يوافقه عليه الرّجال. كلّ ليلة تشهدُ المصطبة إصرارَهم على الرّفض، بينما شعورهم بالغربة يتمطّى كأفعى متخمة أمام فناجين القهوة المقلوبة لتنظر بها عجوزٌ دردبيس... تطيلُ النّظر إليها وإلى الرّجال بمن فيهم القادريّ، ثمّ يأتيهم صوتُها من قمر بئر عميقة.

- أسوارٌ عالية وطرقٌ مغلقة.. لا سبيل إلى اجتيازها.

ذات القراءة تتكرّر كلّ ليلة حتّى صاح بها القادريّ غاضبًا.

- اذهبي إلى الجحيم أيّتها المرأة الخرِفة.

ثمّ أهاب بالرّجال.

- لا تدعوها تدخلُ مجلسَنا مطلقًا...أغلقوا في وجهها الأبواب.

أمّا الآمالُ العراض فارتسمت في صدورهم فورذهابِها.

- حرام يا عالم قراءةُ الفناجين... حرام.

قالها القادريّ بحزمٍ أمّنوا عليه.

«وجودُه بينهم يجعل من آمالهم حقيقةً واقعـة. يكسبُهم وجودُه طمأنينة كأنّما لم يستولي الأعداء على المصنع، وكأنّما الأراضي المنهوبة لم يلحقهـا البوار... فقط أغلقت السّماء أحداقَها المتفجّرة بالدّموع فلم تمطر، لذا هم لم يزرعوا ولم يقطفوا الثّماربعد».

لماذا تأخّر؟

المرارةُ تربض في حلوقهم. ينظرون إلى الفناجين بغضب «هذا النّوع من القهوة لا يترك حثالة تُقرأ» يصيحون بصوت واحد.

- سئمنا القهوة المرّة.

تأتي لهم غير محلّاة. يقبضُ كلّ منهم على فنجان ممتلئ. يختلسون إلى النّساء النّظرات. يقرؤون على وجوههن غبارًا كالّذي يسبق العاصفة. تتأرجح سيقانهم بعنف في الهواء. يصيبها التعب. ينظرون إلى الصّغار وهم يلكزون حافّةَ المصطبة. «سعداء هؤلاء الصّبية... خيلُهم دائما تعدو بهم وهي في مكانها». يدلقون القهوةَ في أفواههم دفعةً واحدة. يديرون الفناجينَ بين الأصابع. يختلسون إلى النّساء النّظرات. يقلِبُون الفناجين. تستقرّ على أكفّهم. يضغطون عليها. يلهثون. تتغلغل عيونُهم إلى الحثالة السّمراء. تصدمُهم الأسوار العالية والطّرق المُغلقة. «اجتيازها صعب أو مستحيل».

تندُّ عن النّساء صرخةٌ مشتركة وكلّ منهن إصبعُها في فمها مكان الوخزة، يرمقن الإبر في عتاب واضح. يرتعش الرّجال، تسقط من أيديهم الفناجين.

لماذا تأخّر؟

كان يغرسُ فيهم الحميّة كلّ ليلة، وفي المصنع كانوا دائما من حوله، يشعرون أن ثمارَ تعبهم ليست للغرباء الّذين يحلمون بالسّيطرة؛ الغرباء بجنودهم المدجّجين بالسّلاح يحتلّون الزّوايا أثناء مراقبتهم مجرى العمل. منظرهم يُعرّي الوهم في صدور الرّجال. يجعل من آمالهم العريضة كذبةً كبيرة؛ فيتحلّقون من حول القاديريّ في شبه التحام... يصيحُ بهم صوتٌ قويّ أن يتفرّقوا. ينقضّ القاديريّ على الصّائح يشبعُه لكْمًا وركلا. يهجم الرّجال، تتساقط الخوذات. تتقاذفها الأرجل في حقد... صوتُ عيار ناريّ، يعمُّ الصّمت. أكثر من إصبع تشير إلى القاديريّ. يأمره الضّابط ذو النّجمة السّداسيّة أن يتبعَه، يظلُّ الرّجال في أماكنهم جامدين. تصيح بهم أصواتٌ آمرة.

- إلى أعمالكم.

يذهبون إلى الآلات في صمت.

- ماذا حدث له؟

طالت غيبتُه والنّهار توارى والقمرُ عبثا يحاول أن يقهرَ ما يحسّون به من ظلمة. الصّمت يدقُّ الفضاء بأقدام ثقيلة. يتحدّث الصّمت، يعود الصّدى إلى آذانهم كالقيء، والنّسوة يعدن إلى الحياكة بفتور وحذر.الصّبية ما زالوا يلكزون حافة المصطبة يحثّونها على الرّكض، وأشلاء الفناجين مُلقاةً على الأرض. بماذا سيحتسون القهوة؟ربما تعود العجوز لتقرأ الحظّ. بماذا ستقرأ؟ يفركون أكفّهم، يتطلّع كلّ منهم إلى كفّه. يندهشون لتشابك الخطوط. أسوارٌ عالية وطرقٌ مغلقة. يعاودون النّظر إلى حطام الفناجين. من الممكن أن تسقطَ الفناجين وتتهشّم ولكن الأكفّ كيف تسقط؟

هديرُ سيارة ينقذُهم من التّفكير، يحملقون فيهـا وهي تقف لامعةً تحت أضواء القمر. القادريّ يترجّل منهـا. يلوّح برزمة مفاتيح. أكفّهم تصفّق. يهرولون نحوه يعانقونـه، يحملونه إلى المصطبة. ينفضُ ثيابَه الفاخرة... ما رأوه يرتدي مثل هذه الثّياب من قبل.

- ماذا حدث؟

اشرأبّت أعناقُ الرّجال. كفّت أناملُ النّساء. سكنت أرجل الصّغار.

- لا شيء.

- كنّا جدًّا قلقين عليك.

- وعلام القلق؟

نعرفهم لا يرحمون.

ضحك في جذلٍ وسخرية. لأوّل مرّة لا يشاركونـه عملًا يأتيه. لا يشعرون برغبة في الضّحك. شيءٌ مـا تسرّب إلى نفوسهم.

- بل أنتم الّذين لا ترحمونَ أنفسَكم من الظّنون.

- هه!

تبادلوا سريعًا النّظراتِ المريبة.

- لا يريدون منكم إلاّ أن تعملوا بإخلاص.

- وهم من يجني الثّمار؟

هبَّ واقفا وصاح مُغضبا.

- ماذا تريدون أكثر من الأجور العالية؟

لفَّهم الوجوم... غمغموا بكلمات غير واضحة الحروف ثمّ صدرَ صوت ما.

- نريدُ ما تريده أنت.

عاد إلى جلسته وقال في هدوء.

- إذن فلتتركوا الشّغب، ولتعملوا بإخلاص.

«ليس القاديريّ من يتكلم؛إنّه لم يأتِ بعد، والدّائرةُ على ما يبدو تكتمل هذه المرّة من غير الحلقة الضّائعة». أصواتهم تنطقُ بالرّفض.

يرون العجوزَمن بعيد قادمةً ترتدي أزهى الثّياب. يفتحُ لها القاديريّ ذراعيه. يغلقون هم في وجهها الأبواب.

- لن نحتسي غيرَ القهوة المرّة.

يزمجرُ القاديريّ في غضب.

ليس في مقدوركم إلاّ أن تعملوا في المصنع كما هو، وإلاّ أن تنسوا الأرض، فقد ملّت القمحَ والشّعير. لا بدّ أن تفهموا أنّ الأرض أصابها الملل. ارحموها وارحموا أنفسَكم ونساءكم وصغارَكم.

التحمت منهم العيون، نظروا إلى السيّارة اللاّمعـة تحت أضواء القمر، حملقوا في ثيابه الفاخرة... هبطَت أنظارُهم إلى الفناجين المهشمة.

«لا بدّ من شيء يتهشّم مع الفناجين».

رأسُ القاديّ.

يفركون أكفَّهم... ينظرون إلى تشابكِ الخطوط عليها.كيف تسقط الأكفّ؟

بهدوء يترجّلُ الصّغار عن حافّة المصطبـة... بهدوء تكفُّ النّساء عن الحياكة... يمسكن بالمكانس بنشاطٍ غريب ويكنسنَ بها حطامَ الفناجين،وحطامَ الرّأس.

٢٦حزيران ١٩٧٣

أحلامُ بالمزاد

درتُ حولَ نفسي حتّى غدت السلّة الجاثيةُ على ظهري بين يديه، فأخذ يفرّغ فيها ما تمخَّضَت عنه محفظتُه المنتفخة على شكل بضائع حسبتها مؤونة لسنة لولا أنّي تعوّدت أن أحملَ مثلها وأكثر؛ لأشخاص تطالعني وجوههم كلّ يوم يفتّشون كالنّمل عن الأطعمة المُشهّية.

سرت بحمولتي أمامَه وعصاه الغليظةُ تقرعُ الأرض بانتظام، يدفعني صوتُها من الخلف إلى الامام بقوّة بدأت بشوق ثمّ انتهت بي إلى الملل. وحدها المادّة أوقسوةُ الحاجة ما تمنعني من الثّورة في وجه هذا العجوز المُكتنز بالشّحم واللّحم وبالنّقود أيضا، لعلّه يتذكّرُبأنّي إنسان مثله... إنسان يختلف تمامًا عن الحمير الّتي تساق بالعصا، وأنّ نحنحته وتنخّمه هي تماما اللّغة الّتي يفهمها الحمار ليعدو بحمله الثّقيل إذا ما سمع لفظة «حا».

الحاجةُ فقط تلجمُ أفواهَنا وتربطُ ألسنتنَا فنلوك المسبَّةَ حين نترنّم بالثّناء، ونعلكُ اللّعنةَ حين نشدو بالمديح، وها هي الصّور البغيضة تتراكضُ في رأسي الصّغير أسرعَ بكثير من خطواتي المتتابعة؛ خلفَ صورة أبي المتوفى وأمّي المريضة بالحصوة والمحتاجةِ دومًا إلى الدّواء؛ خلفَ صورة المدرسة الّتي حُرِمتُ منها، وصورةِ هذا السّيد ذي الطّربوش الأحمر والكرش المنتفخة، وكم يا ترى سيجود عليَّ بعد هذا العناء؟!

سأشتري رغيفين وثلاثةَ أقراص من الدّواء، وعند الضرورة سأستغني بالخبز ورائحة الشواء الّتييلتقطها أنفي الجائع من كلّ صوب.سأستغني كعادتي عن هياكل الساندوتش الّتي تتعاظمُ في عيني فتبدو أحلى وأجملَ ألف مرّة من عجائب الدّنيا السّبع الّتي يحجُّ إليها السّائحون، أمّا تلك اللّقمة الّتي تُخرس معدتي عن العواء لأعذبُ عندي من شعر الشّعراء، ومن أدب الأدباء ومن كلّ ما يصفهُ هؤلاء بأنّه جميل. لماذا لا يصف هؤلاء رغيف الخبز الأسود مثلا؟ آه... آهٍ لو أنّهم جاعوا لفعلوا. قاتل الله الشّبع كم يطمسُ حقائقَ أودُّ لو يعرفها الجميع!... عد للواقع يا حزين فها هو صاحبُك يصيحُ مُتصنّعا اللّطف.

- عندك يا شاطر.

أنت مُلزم بالوقوف عند سماعك هذه الكلمة كما يقفُ الحمارُ لدى سماعه لفظة «هيش». الهدفُ واحد والفرق فقط في التّعبير... وجهُ أمّك يُحتّم عليك أن تحترمَ كلّ شيء حتّى الذّل، وأن تكون منافقًا تصفُ القرد بأنّه غزال.

- هنا يا سيّدي الفاضل؟

- أجل يا بنيْ، اصعد هذا المدرّج.

درجة... درجتـان... عشرون... مائة درجة. ما فائدةُ العدّ إذا كان عنصرُه الضّرب؟هل هذا الثّور فاضل؟ ولمَ يستحمرني إذن ببضعة قروش؟ من منّا الحمـار؟ ليسَ هو على كلّ حال، فبهذا تنطق السلّة الجاثمة على ظهري... فهْمُ الحقيقةِ يقنعُنا بالواقع، وصوتُ النّقودِ المتراقصة في جيبه يدغدغُ أذني ويغريها بالرّقص، فلماذا يا ترى تُقطعُ يدُ السّارق إذا كان يحسب حسابا لجميعِ شؤون حياته، ويخشى كلّ شيء باستثناء عواءِ معدته؟

- إنّ حمولتَك خفيفة فلمَ تلهث؟

أأقول له إنّ شقَّتك في الدّور السّادس وصعدتُ منها حاملا أربعةَ أضعافي؟ أأقول له احمِلْ هذه السلّة حتّى الدّور الأخير، بل احملها واصعد درجة أو درجتين؟ أو لماذا تخوركالثّور يا أبيضَ الظّهر، يا أسودَ البطن؟ هل ألجأ للصّراحة أم أعتصم بالجبن كالعادة؟

- اللّهاثُ ياسيّدي أمرٌ اعتدنا عليه في أبسط الأحوال، إنّه أسلوب نتوسّلُ به للبضائع المحمولة أن تخفّف وطأتها على ظهرنا.

«النّاس كلّهم جبناء وأنا حمار منهم».

- من هنا يا بنَيْ.

البابُ يفتح في تواضع وبلا صوت؛ لا كَبابِ كوخِنا يتمطّى في عظمةٍ فارغة كلّما فُتح أو أُغلق؛ فتتجشّأ أضلاعُه المتداعية بصوت مسموع كأنين الثّكلى المفجوعة، لكن كلّ ذلك لا يهمّ طالما وصلنا أخيرًا.

ما أعذبَ الحريّة! ها قد تحرّر ظهري من السلّة الكبيرة، وهبطت البضائعُ إلى قواعدها سالمة. أرني كرمَك أيّها السّيد المحترم. الأولادُ الصّغار – لعلّهم أبناؤك أو أحفادُك- يحيطونُ بك في هدوء. لماذا لا يرقصون أو يغنّون فرحين بأصناف الأطعمة الشّهيّة هذه؟ أوليسوا جائعين؟

- هل أنت جائع؟

- أنا يا سيّدي؟

- أجل... فيم تفكر؟ هذا سمير، وهذا حليم، وهذه إحسان... كلّهم أولادي، وأنت مثلُهم ولد شاطر.

«أنتَ سخيف... لمَ لا تقدّم الحلَّ المناسب؟ فمعدتي خاوية لا تسمعُ سوى رحيق الطّعام، وهي ملحدةٌ بالكلام فلو أذَّنتَ أو قَرعتَ الأجراس فلن تسمعك؛ ولولاها لمددتُ لك لساني حين دعوتني لحملِ بضائعك، معدتي هي المُستَقبِل وهي المُرسِل، إذا أرضيتَها فسأطيعك سيما أنّ الأكل لذيذ على الجوع».

- في أيّ صف أنت؟

- كنت في الصفّ الابتدائيّ السّادس.

يسائلني الصّغار وأجيبهم. هم أيضا يتلهّون بالكلام.

- والآن؟

- كما ترون يا أسيادي، أحملُ للنّاس أشياءهم ولا أجدُ ما أحملُه لنفسي.

- ما رأيك في أن تعود إلى المدرسة من جديد؟

عرضٌ سخيف مهترئ. نعم! أتركُ أمّي تموت من الجوع والمرض من أجل كلام يعوزُه الضّبطُ والرّبط؛ يلقيه شخصٌ هوأولًا وأخيرًا من النّاس.

- لا ترفض...إنّني ألمحُ في عينيك ذكاء متّقدًا... من الظّلم أن يضيع.

- لو حسبنا الضّائع لغدا المعلومُ في ركن الضّياع.

- وافقني ولا تعارض.

- وما الجزاءُ الّذي تنتظره منّي؟

- لا جزاء، وإنّما الحبّ في سقيِ نبتـةٍ حُجبَت عنهـا شمسُ الرّبيع، إلى أن تشرقَ عليها الشّمس من جديد.

«كلام يغازل العاطفة... والشّروق على كلّ حال خيرٌ من الغروب».

- شكّرًا يا سيّدي، فقد قبلت، وسأزفُّ على الفور هذا الخبر لأمّي.

- خذ أجرك.

«ما هذا؟ قرش واحد؟ لا أمّ له ولا أبٌ، ثمنُ عرَقي ودمي،وكرامتي أيضا؟

لا بدّ من الابتسام، فالبليّة قمّتُها ابتسامةٌ تجرحُ القلبَ وتدمي النّفس.

- دع قرشك في جيبك يدفّئها فقد تنفقُ عليَّ به أيّام رعايتك إيّاي.

- أترى القرش قليلا؟! لا بأس هذا نصف قرش أيضا.

- بالعكس... إنّه كثيرٌ ولست غاضبا البتّة، ألا تراني أبتسم؟

وأوليتهم ظهري ورحت أعدُّ الدّرجات الّتي صعدتها حاملا سلّةً مليئة بالحقائق، ونزلتها حاملًا أيضا عجبي واندهـاشي من الأحلام الجميلة؛ الّتي غدت تباعُ في سوقِ المزاد.

14ايار 1967

وجهٌ ذو ابتسامةٍ تتكرّر

لا يدري من أين أتى لأمّه برودُ الأعصاب. على الأقلّ كان يتوقّعُ_ حين داهم الجنودُ المنزل_ أن تصرخ؛ ولكنّها ظلّت هادئةً حتّى وهم يسألونها بعنف.

- أين ابنك؟

جفَل وخارت قواه. تجمّع على نفسه. تمنّى أن تنفي وجودَه، ولكنّها قالت بهدوء وثبات.

- في الدّاخل هو.

سوّلت له نفسُه أن يقفزَ من النّافذة ويهرب؛ وفي اللّحظة الّتي كانت تلوب هذه الفكرةُ في رأسه وقعت عيناه على أطراف بنادق مُشرّعة فوق خوذات حديديّة فأيأسه الهرب. باتَ بترقّبُ في خوف، يتمنّى لو يتحوّل إلى فقاعة صابون، أمّا باب الغرفة المُغلق فقد دفعته الأرجلُ؛ واندفعت ثلّةٌ من الجنود مُصوّبةً البنادقَ إلى صدره. تراجعَ حتّى التصق بالجدار. تقدّمت منه أمّه. قبضت على ذراعه وعنّفته.

- فيم خوفك؟

ثمّ استدارت إلى الجنود وقالت بزهو:

- ها هو ابني. جاء بالأمس لزيارة أرضِه وبيته.

انقضّوا عليه. اشتجَرت على ذراعيه الأيدي، دفعته إلى الخارج. التفَتَ إلى الوراء فوجد أمّه تلوّح له بيديها وعلى ثغرها ابتسامةٌ غزيرةٌ. «فيمَ سرورها وهي تعلم أن مداهمة الجنود لا ترتكز على نقطـة خير واحدة؛ وأنّه سيذوق ألوانا من التّعذيب سيظلّ يذكرها إلى ما بعد مماته؟ فيم سرورها إذن؟!».

آخرُ ذرّة من الثّبات اندحرب من ساحة قلبـه. الدّموع تنحدرُ من مقلتيه. دموعُه لم تطفىء ابتسامة أمه. يداهـا تلوّحان له بقوّة ورصانة، والأيدي تضغط على ذراعيه بشدّة. تدفعه إلى الأمام. ما عاد يستطيع أن يلتفتَ إلى الوراء. أمّه تتوارى عنه. يغرق في بركة آسنة من الوحدة. يختلسُ النّظر إلى الجنود. تصدمُه النّجماتُ السّداسيّة على الخوذات. يستولي عليه رعبٌ قاتـل، يتسربُ إلى جميعِه الرّعب فيحسّ بالضّعف في ساقيه. لم تعودا تحملانه. يتدلّى جسده ورقبته، تجرّه الأيدي في خشونة. يتولّى عنه نصفُ شعوره على الأقل.

يستيقظ وهو مضطجعٌ على كنبة واسعة مريحة. أمـامه مباشرة يجلس ضابط حاسرَ الرّأس، وعلى الجدار صورةٌ مألوفة جدًّا كان يراها من قبل، كان يحبّهـا أشدَّ الحبّ، تُدخِل إلى نفسه الاطمئنان. تتّسعُ حدقتاه اشتياقًا، يتثاءب ويمدُّ ساقيه في ارتياح. ابتسامةُ الضّابط تشعره بالأمان أكثر. يتلفّتُ حوله، لا يرى أثرًا للجنود.

وحده يجلس قبالةَ الضّابط. يتحسّسُ جيوبَه. لا أثر لعلبة السّجائر. يتذكر أنّها كانت في يده لحظة أن داهمَ الجنودُ المنزل. يدُ الضّابط تمتدّ نحوه بعلبة سجائر أمريكيّة من أل «كنج سايز» وابتسامةٌ عرضها في مثل طول السّيجارة الّتي تناولها بثقة وأمان؛ وكذلك أشعلهـا من قدّاحة فاخرة.

- أنت شاب طيّبٌ كما يبدو.

- شكرًا.

نفثَ الدخانَ من فيه على مهل. كلّ حواسه تعود إلى حالتها حين كان ممدّدًا على السّرير في المنزل. ينظرُ عبر النّافذة إلى قمم الجبال النّابتة بأشجار الزّيتون تلامس ذوائبُها شفاهَ الأفق.

«هذه الأرض كلّها تلتحف بغطاء من الخضرة ساحر. تعرفُ كيف تحتضن قطراتِ المطر فلا تضيّعُ منها قطرة». المنظرُ مِن أمامه يسلب اللّبّ ولكنّ جمالَه ناقص، إحساسه بأنّ إقامتَـه تحدّدت بأسبوع واحد يقتل النّشوة. يطغى عليه شوق كذاك الّذي كان حين تسلّم تصريحَ الزّيارة. يحسُّ أنّه مـا زال ينتظرُ في الصفّ الطّويل تحت الشّمس اللاّهبة ليعبرَ الجسر.

- وأنت قطعًا لا تعرف الكذب.

يستفيق على ابتسامة الضّابط وهي تذبل بالتّدريج، تعتصرُها عبوسةٌ تفترشُ جبينَه العريض ذا اللّونين المغطّى بالقبّعـة والمكشوف للشّمس. الحدّ الظّاهر بين البياض والسّمرة يذكّره بخطّ الاستواء الحارق. يحسُّ ببرودةٍ في جبهته، يمسح عنها العرق المُنصبّ.

- لا يمكن أن تظلَّ صامتا.

ترتعش السّيجارة بين أصابعه. ينحبسُ في بلعومه الدخان. تهاجمُه رغبةٌ في السّعال. تخونه أعصابُه في تحقيق هذه الرّغبة.

- من الواجب أن تتكلّم أنت لا أنا.

«بودّه أن يتكلّم، ولكن ماذا عساه يقول؟» الصّمت في جوفه يبتلع الكلام. يهربُ بعينيه عن وجه الضّابط وقد انطفأ فيه الابتسام، وغدا نهبًا لعبوسة شريرة.تقع نظراتُـه على الصّورة المألوفة. «وضعها في هذا المكان باعثه غرضٌ خبيث». يرى وجهَ أمّه ينبت في الصّورة وعليه ابتسامةٌ عريضة. يتنهّد بارتياح ثمّ ينظر إلى الضّابط في ثبات.

- لست أفهم معنًى لما حدث ويحدث.

يرفع سبّابته مُحذرًا.

- ليس من السّهل أن تخدعَنا. نريد كلّ الأوراق الّتي جئت بها.

«عن أيّ أوراق يتحدّث هذا الرّجل؟».

- أيّ أوراق هذه؟

بدأ ينقر بإصبعه على سطح المكتب ورأسُه يهتزّ محذّرًا.

- أنت المطالب بالتّفسير.

بسط كفّه على المكتب بثقة.

- لا أفهم.

- لستَ غبيًّا على كلّ حال. أين الأوراق؟

بدا الغضب يكتسحُ وجه الضّابط. لا يقوى على النّظر إليه. يهربُ بعينيه إلى الصّورة. يرى وجهَ أمه تفترشه الابتسامة. يعود إلى الوجه الغاضب. ينظر إليه في ثبات.

- من المؤكد أنّه قد حدث خطأ ما.

- نحن لا نخطىء أبدًا. جاءت معك أوراق. أين هي؟

«هذا الضّابط يتكلّم بثقة مطلقة وعينـــاه يتوالد فيها الشّرر. ربّما جاءت أوراق معه، ولكنّه لا يدري أين هي بالضّبط». يحاول أن يتذكّر، رأسه كساحة معركة خالية يثورُ فيه الغبـار وهو مجذوبُ الحواس إلى العينين المُشتعلتين. أين خبّأ الأوراق؟ هل من الممكن أن يكون غضبُ هذا الرّجل بلا سبب؟

ترتفعُ عيناه إلى الصّورة. يرى وجهَ أمّه تفترشُه الابتسامةُ الرّحبة. تلمسُ جبينَه يدٌ حانية.يسترخي في الكنبة أكثر. يرمق الضّابط بنظرة شزراء.

- كلّ ما تتحدّث به لم يحدث البتّة... معي على الأقلّ.

- ولكنّك تعرف ماهيةَ الأوراق الّتي أتحدّث عنها.

وضع ساقًا على ساق بعد أن تمطّى.

- بالتّأكيد هي ليست أوراق «بنكنوت» ولا تلـك الّتي مبعثرة عليها مزامير داود.

يتشنّج وجهُ الضّابط وتصغرُ حدقتا عينيه وتكبران، تلسعه السّيجارة المتآكلة بين أصابعه، يحاول أن يلقيها أسفل قدميه.يختطفها الضّابط منه ويغرسها في كفّه المبسوطة على سطح المكتب. يصفقُ بيديه، يفتح الباب، يمرقُ منه جسدٌ بضخامة فيل، تقبضُ على ذراعه يدٌ حديديّة، تضغط عليه، يصرخ من الألم، يتثبت، يساقُ إلى الخارج، قدماه تمسّان الأرض مسًّا، تمرّ به لحظة كأنّما يركب فيها جسمًا أسرعَ من البرق. تمرُّ عنه أشياء غير منظورة بمثلِ السّرعة تلك.

يصحو على حزمةٍ من العصيّ مسندة إلى زاوية مقابلة له تماما، يهبط في قلبه خوفٌ مفاجئ، يحاول أن يستديرَ بجسده، لا يستطيع، برأسه، لا يستطيع، يكتشف أنّ العلاقةَ المكانيّة بين المقعد المُثبّت وبين حزمة العصيّ لم تنتظم عبثا، أمّا رأسُ الفيل فيكمل بهزّات متوعّدة هذا الانتظام.

«سيُضرب ضربًا مبرحا وسيضطر أن يتكلّم بلسان غير لسانه، سيعترف برزمة من الأوراق دخلت سرًّا معه. سيدفنُها في باطن الأرض، أو سيوزّعها على أصدقائه الّذين عانقوه بالأمس مجرّد وصوله؛ وقضوا اللّيلة الفائتة معه في تذكّر أيّام الصّبا الجميلة، وسيحدّد الزّمان والمكانَ لعملية مزعومة خطّطها ورفاقه؛ وستعترف أمه بأنّها كانت تصنع الشّاي للمجتمعين، وقد وقفت تنظرُإلى ابنها في حبّ، فطلبوا منها أن تتركهم لمرح الشّباب».

هذه الخواطر مرسومةٌ على حزمة العصيّ، وعلى الجسم الضّخم المتوعّد. يغرقُ في خوف هستيريّ. يحاولُ من جديد أن يستديرَ برأسه، لا يسعفه المقعدُ الضيّق المثبت. يهتدي إلى أن يغلق عينيه. تصافحُ أجفانه الصّورة المعلّقة فوق رأس الضّابط. يطلّ منها وجه أمّه، تحبو نحوه الابتسامة. يتقهقرُ من قلبه الخوف، ينتهره الجسدُ الضّخم، يفتح عينيه، تخزّهما حزمةُ العصيّ، يغرق في الخوف من جديد، يغلق عينيه.يرى الصّورة والوجه ذا الابتسامة.

ينتهّره الجسد الضّخم «افتح عينيك»» يتشبّث بالصّورة والوجه. يتّسعُ المقعد بالتّدريج. يسترخي في جلسته. يرى بعين خياله الفيلَ يغدو في حجم

الصّرصار، والعصيّ الصلبـة رآها تتحوّل إلى حزمة من القشّ تتكسّر من لمسة يده. وفي رأسه أحسَّ بأعراف الزّيتون تنبت، تتسلّلُ جذورُهـا إلى صدره ورجليه، ثمّ تنغرسُ في الأرض صلبةً تجري فيها الحياة.

يصيح به صوتٌ قويّ «افتح عينيك» ما زال يتشبّثُ بالصّورة والوجه الباسم. وجه أمه تعانقُه ابتسامة حبيبة. «ليست هذه أوّل مرّة يرى ابتسامة أمّه... قطعا ليست أوّل مرّة... وليس في هذا اليوم... وليس في هذا المكان... أين ومتى رآها؟ ليس وهي تقدّم الشّاي إلى رفاقه بالأمس. كان على وجهها الحبّ كلّه آنذاك.وليس الابتسام وحده. أين ومتى رأى هذه الابتسامة... أين...؟». صوتُ الفيل لا يمنعه من التذكّر بل يدفعه إليه.

قبل حفنة من السّنين وذات يوم من أيّام الصّبا عاد إلى البيت ورأسه مشجوجة؛ والدم يغسلُ وجهَه وثيابه. يداه تتشبّثان بكرةٍ كانت سببَ الشّجار حين حاول أحد الصّبية أن يأخذها منه بدعوى أنّها له. دافع عنها دفـاعًا شرسا. لم يضعفه منظردمه المراق، بل إنّ الدم كان حبيبًا إلى نفسه «ستراه أمّه فيبعث الحميّة في قلبها فتهرع إلى الانتقام».

كان وهو عائدٌ إلى البيت يُجهّز الدّموع ليذرفها على صدر أمّه وهو يسرد عليها ما حدث؛ ولكنّه وجد الصّبية قد سبقوه إلى إخبارها. لم تكن غاضبة ولا منفعلة، فقط تلقّته بابتسامة عريضة كالّتي ودّعته بها اليوم وهو مساق بايدي الجنود.ولم تزد على أن قالت وهي تربت على ظهره.

- حسنا. فأنت ما تزال محتفظًا بالكرة.

هبّت عليه لهذه الذّكرى نسمةٌ باردة منعشة. فتح عينيه على اتّساعهما. رأى حزمة العصيّ منتصبة في مكانها، ورأى الصّرصار يداعب بيديه قشّة منها وينظر إليه في توعّد؛ فارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ ساخرة... استرخى في مقعده حينها أكثر... ومدّ ساقيه بارتياح.

12 تموز 1973

باقةُ ورد

كلّ يوم يشتري جريدة بقرشين ويُقلّبها فورًا على الصّفحة الثّانية حيث الأخبارُ المحليّة، وأخبارُ التّعيينات بالذّات، وكلّ يوم يقرأ قرارًا من الوزير يُعيّن بموجبه أشخاصا في مختلف الدّرجات؛ أشخاصًا يعرفهم، يعرف أسماءهم وأخلاقَهم، كما يتصوّر وجوهَهم الّتي عاشت معه عامين كاملين في المعهد، فلم يكونوا في جُملتهم من ذوي الميزات الّتي تنقصه؛ ولكنّ الجميعَ نالوا شرفَ التّعيين وخطّت أسماؤهم بقلم الوزير؛ إلاّ هو وأربعة آخرين شملَهم سوء الطّالع، وربما سوء طالعه هو، فنسيهم الوزير أو تناساهم.

وكلّما وجدَ الصّفحةَ خاليةً من الخبر العظيم أطلقَ زفرة حرّى كثيفة، وتأسّف على القرشين اللّذين اشترى بها همًّا جديدًا، كما تحسّر على رغيف السّاندوتش بالفلافل الّذي سيُحرم منه على وجبة الغداء، فيطوي بطنَه على آلام مبرحة، وتتقلّص نفسُه حين يتذكّرُ وجهَ والده وهو يسأله بفراغ صبر:

- هه، ألم تصل مركبتُك إلى القمر بعد؟

ثمّ يستأنفُ حملتَه في حقدٍ وتشفٍّ وهو يرى الصّمت الحزين يُغلّف وجهه.

ـ قلتُ لك أن البغالَ لا تلد.

ثمّ يمدّ إليه يده بقرشين قائلا بلهجة ممطوطة.

ـ اطلب العوضَ من الله.

«لا شيء يقتلُ الآمال في نفسه كانعدام ثقة والده بالانتظار المفيد؛ وتكرارِه للقول بأن يتخلّى عن تلدّده فيبحث له عن عمل آخر غير التسكّع على أبواب الوزارة كالشّحاذ، ويرميه بحبِّ الرّاحة مع الجوع كالكلاب». قد ملّ هذا الشّريط المُسجّل، وغدا لايرى في الوظيفة غير مُخلّص له من هذا العقاب المزمن الأليم.

لكنّه حين دفع القرشين في اليوم التّالي وقلّبَ الجريدة على الصّفحة الثّانية، ودارت عينان محمومتان خلال الأعمدة والسّطور تبحثان عن المعجزة؛ هالّه أن الدّنيا تقف في طريقه بالعرض،حيثَ وجدَ الوزير قد أمرَ بوقف التعيينات.

«وها هو الجسرينهدمُ قبل أن يتمكنَجميع المسافرين من العبور». أغمضَ عينيه وهو يطوي الجريدة الّتي بعد لحظة كانت يداه خاليتين منها.ربما رماها أو مزّقها وهو لا يعي...بصق على الدّنيا وتابع سيرَه بخطى متعثّرة، وبقلبٍ يكاد ينخلعُ لتتابع الزّفرات.

ماذا يحدثُ لو أنّه اعترض طريقَ سيّارة مسرعـة؟ هل ستسحقُ عظامَه ويرتاح؟ أم هل سيلاحقُه سوء الطّالع فتنكسر ساقه أو يتهشّم رأسه ولا يموت؟ ربّما الأصلح أن يلقي بنفسه من أعلى طابق في أعلى عمارة، ولكن هل يجزمُ ألاّ تخونـه قدماه فيسقط من على الدّرجة العاشرة أو العشرين؛ فيترضرض جسمه ولا يموت... لماذا تتشبّثُ به الحياةُ وهو لا يريدُها؟ منذ متى كان الموت يعزُّ على طالبيه؟

كثيرون هم الّذين يحبّون الحياةَ ويرغبون فيها فيفقدونها لأتفهِ الأسباب، أمّا عن نفسه فهو على استعداد أن يعطي أيّامه الباقية للكلاب، فكيف يهربُ من

الحياة والحياة تهربُ إليه؟ ثمّ لمَ النّاس يضحكون ويغنّون؟ هل يجدون فعلًا أنّ الحياة جميلة؟ ربّما... أمّا هو فلا يراها إلاّ كتلك الجريدة الّتي كانت في يديه، لا تساوي قرشين.

كان يمضغُ أفكارَه بقسوة وشراسة حين التقى به واحدٌ من رفاقه الأربعة. تنهّدَ بارتياح وأدرك عندها لماذا تمنّى لو أنّ الجسر انهدم قبل أن يعبره أيّ مسافر.سأله صاحبُه في غيظ.

- هل قرأت الخبر الممتع؟

هزَّ رأسَه في أسف ثمّ قال بحرقة.

- عجز البحرُعلى ما يبدو أن يحملَ سفينةًعلى متنها أنا وأنت والباقون.

تنهّد الآخر بأسى.

- بأيّ مقياس يقيسُ البحرُ منسوبَ مائهِ؟ وباي دليل يقيّمُ رفضَه؟

ضحك في غلّ وقال بسخريّة مرّة.

- لا مقياسَ هناك ولا دليل، ولكنّه مجرّدُ تخمين.

ثمّ تابعا التسكّع يجترّان أحزانهما في صمت، إلى أن توقّف«يوسفُ» عن السّير قائلا وهو يضع يده على كتف زميله.

- لم لا نقابل الوزيرُ ونشرح له حالنا؟ لا أظن أنّه سيخذلنا.

صمت هذا للحظة قبل أن يقول بحرارة:

- معك حقّ.

وافترقا على أن يلتقي الخمسة في صباح اليوم التّالي أمام الوزارة، ولكنّهم لم يذهبوا إليها بعدما تناقلت الصّحف نبأ مرض الوزير ونقله إلى المستشفى. زاد هذا من يقين يوسف «أن الدّنيا تقف في طريقه بالعرض وأن روثَ الحمائم الطّائرة لا يسقط إلاّ في إنائه».

تحلّقَ الأشقياءُ الخمسةُ من حول بعضهم البعض ليشفوا غليلهم بالتندّر من حظّهم التّعس. قال أحدهم:

- يجب أن يُلقى القبض علينا بتهمة التسبّب في مرض الوزير.

تفشّت بينهم ضحكةٌ صفراء باهتة، أشعلها أحدُهم بقوله:

- كلّ شيء يباعُ ويشترى ما عدا سوء الحظّ.

ردَّ عليه آخر:

- وهل تطمعُ في أن تكون تاجرًا كبيرًا؟

تناثرت ضحكاتهم هباءً، بيد أنّ الألم الرّاسب في النّفوس أيقظَهم بعنفٍ من جديد، لذا قال يوسف كونه أكثرَهم إحساسًا بالبطالة:

- ما رأيكم أن نزورَ الوزير في المستشفى!

قال أحدهم معلّقًا:

- وفي اللّيلة الظّلماء يفتقدُ البدر.

ولكنّ الباقين استحسنوا الفكرة، وطال جدلُهم حول الهدية المناسبة الّتي سيحملونها معهم؛ إلى أن اجتمع رأيهم على أن أكثر الهدايا لياقةً في مثل هذه الحالة «باقة ورد»سيحملها أحدُهم ويتبعه الآخرون.

ثمّ وبعد الاستفسار عن صحّة المريض والتّمني له بالشّفاء، يشرحون له ظرفَهم، ولا بدّ أنّه سيستجيب إلى مطلبهم كونه يأتمر الآن بأمرِ سلطان المرض، الّذي يلين القلوبَ ويجعلها أكثر رهافةً وإحساسًا بمشاكل الغير.

عادوا إلى بيوتهم ليقضوا ليلةً يتيمة من الأحلام الجميلة، وفي الصّباح اشتروا باقة ذاتَ ورود متنوّعة الأشكال. ساروا في طريقهم إلى المستشفى والأملُ يداعبُ الأفئدة منهم؛ فانطلقوا يغنّون ويتحرّكون بانتشاء، يتبادلون حملَ باقة الورد، حتّى إذا ما حملها أحدهم بيد خُيّل إليه أنّه يحمل الوظيفة والعالمَ كلّه باليد الأخرى.

حين وصلوا المشفى تناهت إلى آذانهم من بعيد أصوات جلبةٍ وضوضاء؛ فكفّوا عن الغناء وأرهفوا السّمع أكثر.أحسّوا بتلك الأصوات المختلطة تقترب، ثمّ تميّزت في صوت موسيقا رتيبة ذاتَ لحن مميز تفسّره أبلدُ الآذان بأنّه من النّوع الحزين. كان هناك أناسٌ كثيرون يدبّون خلفها ومن حولها مطأطئي الرّؤوس حزنًا.

اقترب الخمسةُ من الموكب، تقدّم أحدُهم عدّة خطواتٍ من رجلٍ بالغ الحزن وسأله بدافع الفضول ليس إلاّ:

- من صاحبُ هذه الجنازة؟

لوى المسؤولُ بوزَه ولم يجب فتطلع السّائل في عفويّة إلى مُقدّمة السّيارة، حيث كُتِبَ اسمُ الفقيد محفوفا بالآيات؛ فكاد قلبُه ينخلع. خطا بسرعة إلى أصحابه الّذين كانت ملامحُهم ترسمُ علاماتِ الهزء واللاّمبالاة بهذه الجموع الغفيرة الّتي خرجت في وداع واحدٍ هو أوّلا وأخيرًا من النّاس.

أشار لهم بيده لينظروا إلى اسم الفقيد، تسمّروا مكانهم كأنّما قُيّدوا بحبال. جعلوا ينظرون بعيون دامعة إلى الاسم، يتمنون لو يتغيّر ترتيب الحروف ليرسم اسما آخر غير اسم الوزير.

انجرفوا في تيار الجموعِ المُشيّعة وقد أثقلت النّكبةُ المستجدّة أجسامَهم، فناءت بحملها الأقدامُ قبل أن يكفّوا عن السّير وقد تنبّهوا أنّ أحلامَهم لا تُشيّع بهذا الشّكل. فاتتهم الجموعُ المتزاحمة وألفوا أنفسَهم في نهاية الصّفوف ومن ثمّ خلا الشّارع إلاّ منهم. أنشأوا ينظرون إلى بعضهم في ذهول مشحونٍ بالغلّ.

- قتلناه!

قالها أحدُهم قبل أن يضحكَ الجميع.

- أين باقةُ الورد؟

سأل يوسفُ آخرَ مَن حملها منهم.

نظر إلى يديه فوجدهما خاليتين. قلّب يديّه...هزَّ كتفيه، ثمّ أشارإلى الجموع الغفيرة.

- لا بدّ أن يدفنوها معه.

- ليتهم يدفنون معه أيضا تلك البغال الّتي لا تلد.

21تشرين أوّل 1967

النّوم في بحر الصّمت

وقفَ على بابِ عربة القطار ملوّحًا بيديه. الكثّيرون من ذويه على الأرض في المحطّة يلوّحون له بأيديهم أيضا؛تغمرُ وجوهَ بعضهم مشاعرُ مختلطة. يعرفُ مبعثَ سرورِ بعضهم حيث يعتقدون أنّه سيعودُ من رحلته بأروع القصص، يحكيها واللّيل مرخٍ سدولَه، ترقصُ على صفحته النّجوم. حينها لا ينقطعُ الحديثُ لحظة واحدة كونه متحدثًا بارعًا يسحر الألباب.

يتخلّى كلّ منهم عن دوره في الحديث، بينما يعرف داخليّا ضخامة هذه التّضحية، فللكلام في أفواههم مذاق السّكر وهو بلسانه المدرّب يذيبه، ويصبّه في آذانهم في حلاوة الشّهد، فلا يندم أحد منهم على سكوته ما دام له لسانه.

«رحلتُك هذه ستعود منها بالأحاديث السّاحرة. السّفرُ يزيدك معرفة وخبرة، ولا بدّ أنّ النّاس الّذين ستقابلُهم سيتحفونك بكلّ جديد؛ تسامرُ به ذويك حين تعود».

طبعَ على أصابعه قبلةً، نفخها في الهواء نحوهم قبل أن يتوارى داخل العربة. جلسَ على مَقعده المخصّص. أوّل ما التفتَ إلى جواره وجدَ رجلا ذا كرش ضخمة. حاول أن يحيِّيه بيد أنّه كان جامدَ السّمات كصخرة هامدة.استبعد أن يكون الرّجل طبيعيّا فيرى أو يسمع. حوّل نظره إلى بقية الرّكّاب. ألفاهم جامدين لا يأتون بأيّ نأمة. بدوا كالتّماثيل في جمودهم المُميت هذا. أشاحَ وجهه إلى النّافذة بعد أن فطن إلى أنّ الصّمت مُخيّمٌ على العربة منذ أن دخلها.

«ليس هناك ولو كلمة واحدة تشي بأنّ هؤلاء أحياء». نشطت عيناه بالبحث عن شفتين تتحرّكان بعد أن سلّطهما عليهم من جديد. لم يجد. لمح شرطيّا ينتصب في مقدّمة العربة عند الباب. «ما علاقة هذا بالصّمت المُخيّم؟ هو

أيضا لا يتكلّم! ليس من شيء يدلّ على أنّه حيّ سوى عين واحدة تتحرّك بنشاط، تُعوّض به تعطلَ العين الأخرى المفقوءة... كالصّقر يقف بتحفّز».

الصّمت يقرع أذنيه. يخبطُ رأسه. يغلّ دماغَه. يقيّد أعصابه. «الوجوه من حوله لا تحملُ علامةَ حزن واحدة، ففيم سكوتهم إذن؟».

يلتفت في كلّ اتّجاه. يستبعد جدًّا أنّ من حوله حياة. وحده الّذي يحرّك رأسه وعينيه، عينُ الشّرطيّ هي أيضا تتحرّك أمّا جاره فجامد، متصلّب. تنفّسُه بطيء، بطيء ويشمُّ الهواء بقدرٍ معين. «هذا الجسمُ الضّخم ماذا عساه يكفيه من الهواء؟ لابدّ أنّه يعاني كما يعاني هؤلاء جميعًا». مازال يتلفّت. يبصرُ الشّرطيّ قادما نحوه وعينه الواحدة مُنصبّة عليه في جوع قاتل.

ينتصبُ أمامه. يحرّك يديه بعنف وشفتاه مطبوقتان. لا يتكلّم. هو أيضًا لا يتكلّم. يُعبّر بيديه. يفهم أنّه غاضب. «لم يقَم بما يُغضِب!». تشتدّ حركةُ يديه وفمه مغلق. «هو أيضا لا فرق بينه وبين بقيّة الرّكّاب إلاّ في حركة عينه الواحدة.. فقءُ عينِه الأخرى بالتّأكيد لم يكن حادثًا عرضًا».

تولّى الشّرطيّ عنه وانتصب مكانه في مقدّمة العربة. انتبه إلى أنّه بات جامدًا بلا حراك. «لهذا تركه الشّرطيّ إذن. لهذا كفّت يداه عن الحركة».

ماذا حدث للرّكاب؟ يحاول أن يلتفت إليهم. لا يقوى على الالتفات. ما الّذي حدث له؟ عيناه منصبّتان على الشّرطيّ وحسب. لا يستطيعُ تحويلهما عنه. بودّه أن يلتفت إلى جاره على الأقلّ. لا يستطيع.يحسُّ بأذرع أخطبوط تلتف حول صدره. تضغط عليه. لسانه في فمه ميّت. يستوطنه خوفٌ شنيع. العينُ المفقوءة تلتهم مجالَ الرّؤية؛ تضعه في قعر بئر مظلمة.

تحوم عليه فيها حشراتٌ مخيفة... تلحس جلدَه، تدميه. ليس من شيء يتحرّك فيه سوى تراكض الأفكار في رأسه. الصّمت والجمود، وعجزه عن الحركة والكلام، وهذا الشّرطيّ المنتصب يتجوّل بعينه السّليمة في ذعر ناشط، وعينـه الأخرى كالصّرصار الميّت.

ـ كيف فقئت؟

يسمع سعلةً من ورائه خافتة. يرى الشّرطيّ ينقض في شراسة النّمر. يعود حاملًا أحدَ الرّكّاب بين يديه وهو ما زال يسعلُ في خفوت. يلقي به خارج العربة. تنفجر صرخةٌ هائلة. تحدث همهمات من قبل الرّكّاب. يعود الشّرطيّ إلى مكانه. يهدّدهم بعينه. يمدّدُ الصّمت أرجلَه.يُطبق بفكيه على الجميع.

تنقطع الافكارُ من رأسه للحظة. تكبو الافكارُ ثمّ تعود إلى الجريان الناشط السريع. «السعلة الخافتة ألقتبصاحبهـا تحت المجلات؟! منتهى القسوة والتّسلّط».

يشعر برغبة ملحّة للسّعال. يرى التّحذير مرسومًا على عين الشّرطيّ. تعود الصّرخة إلى خبط أذنيه لتهدمَ رأسه. يسمعُ تنفّس جاره غير المنتظم. «إنّه نائم. علّه لم يرَ أو يسمع ما حدث... هذا أفضل. ليته كان هو أيضا فاقدًا للسّمع والبصر... كلّ شيء هادىء؛ حتّى العجلات الحديديّة تسيرُ بلا صوت. الحديد يقرع الحديد بلا صوت... منتهى العجب!

يسمع جأرة مقعد من أمامه. يرى الشّرطيّ يتحوّل عن مكانه. ينقض على أحد الرّكّاب حيث الصّوت. يحملُه بين يديه، يُلقي به هو الآخر خارج العربة. تلعلعُ صرخةٌ مدويّة، يسري بين الرّكّاب لغطٌ خافت. ينتصب الشّرطيّ مكانه. يعمّ السّكون مجدّدًا. تسير العجلات بلا صوت.«لا بدّ أن الدم يصبغُ العجلات فتنزلق بسهولة على الحديد، يساعدهـا الدمُ المراق على كتمان الصّوت».

بودّه أن يتململ في مقعده، جسده مضغوط، يتمشّى فيه الخدر، ولكن هناك أشياء لا يمكن تجاهلها: عينُ الشّرطيّ المتحرّكة، والأخرى المفقـوءة،

والصّرخة المدويّة. أمّااحتمال الأمور التّافهة الّتي لا بدّ أن تتحقّق فذلك من أصعب الأمور.

تنفّسُ جاره يتحوّل إلى غطيط تدريجيّا حتّى يبدو كمحرّك جرّارٍ تعطلّ أثناء الحرث، يجرحُ وجهَه الصمتُ فينقضّ الشّرطيّ فجأةً عليه. يحاول أن يحملّه فلا يستطيع... ما زال نائمًا. يجرّه بعنف. يستيقظُ عند الباب كمن مسّه جان. يحاول أن يلقي بـه إلى الخارج، تنزلق يداه عن الكرش الضّخمة، يسقطُ الشّرطيّ. يسقط فتهدر منه صرخةٌ هائلة. يقف الرّكّاب، يصفقون، يهلّلون. «إذن كان لهم ألسن وأيدٍ ». يصيح فيهم صوت قويّ غاضب.

- كلٌّ في مكانه جامد.

ذو الكرش الضّخمة هو من يأمر هذه المرّة، يقفُ مكان الشّرطيّ في تحفّزِ الصّقر الجائع. يقف بينما عيناه تتحرّكان في نشاط مذعور، عينان اثنتان، وعلى وجهه يرتسم التّحذير، يمدّدالصمتُ أرجله وأذرعه من جديد... لا شيء تغيّر سوى أنّ العين المفقوءة غدت سليمةً مُبصرةً ليس إلاّ.

فكّر بالتمرّد، بالصّياح، بالحركة، ولكنّ لسانه مربوط، وأعضـاءه مشدودة إلى أثقالٍ من حديد...أفكارهُ وحدهـا النّشطة، تتراكض خيولُها في ملاعب رأسه فيطلقُ لها العنان.يبصر ذا الكرش الضّخمة مقبلا نحوه، يقف أمامه، يحرّك يديه بعنف وتجبّرٍ دلالةَ الغضب. «ولم يَقُم بما يُغضب سوى أنّه يفكّر... يفكّرُ أن كيف سينام ليتنفّس في ثقل، ثمّ يغطّ بصوت مسموع، ثمّ يسقطُ ذو الكرش الضّخمة تحت العجلات».

26تموز 1973

جنازةُ الشّتاء

الشّمس أطفأتها الغيومُ السّوداء الكثّيفة وضبابٌ أعمى يذرعُ الفضاء بأقدام ثقيلة؛ يضمّ ذراعية على برودة قاتلة، يقرعُ الأبواب الّتي انغلقت على ساكنيها الّذين تحلّقوا من حول المدافئ يدرأون بها البرد.

مِن المساكن كلّها يتصاعدُ الدخان الّذي يتحوّل إلى دفء خلا بيتٍ من الطّين؛ تآكلت جدرانه واهتزّ منه السقف. ظل يقاوم الماءَ المنهمر في يأس، ثمّ استسلم بعدما تأكد له استحالة الثّبات، لذاأغمض عينيه على الدّموع تتساقط على رؤوس صِبية ثلاثة تدثّرهم أمهم بغطاء خلق.

وحدَه قاوم السنينَ الّتي انقضت على وفاة ربّ الاسرة في رحلة تعيسة؛ يومَ نزلّت الكارثة في قلب الزوجة فكسَرت جناحيها، كما قلّمت أظافرَ الصّغار فعادوا لا يتلهّون بها في انتظار هدايا أبيهم. لكنّهم لم يتخلّوا عن عادة وضع أصابعهم في أفواههم وهم وقوفٌ بباب البيت؛ يشمّون رائحة الطّعام تتسلّل إلى أنوفهم من البيوت المجاورة، بينما ترقبُهم الأمّ بدمع واكفٍ وقلب حزين. يشتد حزنُها حين تراهم يهجمون على صحنٍ يبعثُ به محسنٌ كصدقة على هولاء الأيتام.

الصّغار يوحوحون من البرد. تصطكّ أسنانهم بلا إرادة، يصرخون طالبين الخبز. يموتُ الطّلبُ بتأثير موجات البرد؛ تلهبهم بسياطها فتهوي مطارقُ الأسى على قلبِ الأمّ لتجد دموعُها سببًا آخر للانسكاب غير الإحساس بالبرد والجوع.

الشّبع والدفء ما يريده الصّغار. الدفءُ والشّبع لا غير. وهي مثلُهم لكن اصطكاك أسنانهم وصراخهم ينسيها ما بها فتهرع إلى الباب الموصد...تجرحُها سياطُ الرّيح من شقوقه الواسعة. تندحر ويداها مضمومتان

إلى صدرها وتحسّ بقميصها رَطبًا يلتصق بلحمها. تجذبه بعيدًا بأصابع مرتعشة وتتجشّأ المعدة الجائعة، تثبّت ذاتها فيسيل لعابها... تبصق، ترتسم البّصقةُ على الجدار كشبح تضخّمه الظّلمة الحالكة.

السّماء عابسة ووجها مكفهّر.رياحٌ قارصة تصفعُ وجـهَ الغيوم المسودة فتزيد من إصرارها على الثّبات. الرّعدُ يتدحرجُ هزيمُه قاطعًا المسافات. الأبواب مغلقةٌ وليس من نأمة تبشّرُ بيدِ محسنٍ تدفعُ عن الصّغار الجوعَ والبرد. الأمّ تغلق أذنيها في وجه الصّراخ فيرهفُ قلبُها السّمع.

تتسلّل البرودةُ من الأرض إلى قدميها العاريتين فتحرمُها من الوقوف المُطمئنّ. تظلّ تتنقلُ على الأرض الخالية من الفرش، ينتهي بها الطّواف عند الباب، تجرح وجهَها أطرافُ الرّياح الباردة، ترسلُ بصرها إلى السّماء، تراها حبلى بالغيوم. تنحدر نظراتها، يشكّها ضبابٌ متسارع يكتسحُ وجهَ الأرض. تنحدر من عينيها الدّموع بعد أن أخذت عيناها استراحةً لبضع دقائق. يترجرج العالم، يومض البرق، ينغمد سيفُ حادٌّ في أحشاء الظّلمة والضّباب. يقصف الرّعد.

تصلصل سيوف ماضيات في جسد الوقت. تصهل الريح فتمتطيها فوارس معتوهة. يوحوح الصّغار، تصطكّ أسنانهم، يصرخون «««خبزًا... نريد خبزًا» يقرصُها الجوع. تشمُّ رائحة معدتها الكريهة، تخنقها الرّائحة، تبصق على الجدار، تدقّ الباب بقبضتيها، تتصلّبان على الباب، تركله الرّياح بقدم حاقدة. يئِنُون. تخرج مسرعةً بجنون.تطرقُ البيوت.

«خبزًا» تطرق. «ملحًا»تطرق.«غطاء» تطرق.«فحمًا» تطرق.لا أحد يردّ.

تقفُ فجأةً وقد أرهقها المسيرُ والطّرَقَاتُ الضّائعة أمام قصر عظيم، تطرقُ... بيديها تطرقُ. برجليها تطرقُ... أحدٌ لا يردّ... الغيظ يفور في رأسها. بشدّة تطرق... يفتح الباب. يطلّ شعر مصفوف لامع بصوت لامع أيضا.

- ما هذا الجنون؟ زر الجرس هناك... فلمَ الإزعاج والطّرق بهذا الشّكل؟

«الرّيح تطرقُ بيتنا طرقًا عنيفًا». تدخل بلا استئذان... تقف أمام كتلة من الفرو.لا تستدلّ على أنّ في داخله امرأة إلاّ من الشّعر اللاّمع والصّوت. تهربُ من جسدها البرودة على الفور. «من أين يأتي الدّفء؟ بودّها أن تتخلّى عن قميصها المبلول وأن تقف عارية فلن يطالها الآن البرد». الأنوار تغمرُ المكان. موسيقا تصدح. قدماها تغوصان في وبر السّجاد. تدغدغ النّعومة بشرتها. التّماثيل تنتصب في الأركان.«غالية هذه التّماثيل. تشبع الاف الجائعين خبزًا أبيض. والدفء هنا مقصلةٌ للبرد. هنا الفصول كلّها تسير في جنازة الشتاء».

منضدة رحبة حافلة بأطايب الطعام. تمدُّ يدَها لتأكل غير آبهة بشيء. تتذكر الصّغار. تسمع صراخَ الصّغار. تقبض على رغيف مجمر. تقبض على شيء آخر، وآخر...تسير نحو الباب. تسمعُ صراخَ الصّغار كضجيجٍ يملأ المكان. يأتيها صوت ناعم من بعيد... من بعيدٍ جدّا... من داخل كتلة الفرو.

- اغلقي الباب بسرعة كي لا تدخل الرّيح.

تتذكّر الرّيح. تتقهقر خطواتها إلى الدّاخل من جديد. يصيحُ بها الصّوت النّاعم وقد غزته خشونة بعد أن تلاشى الضّجيج:

- مكانك... قدماك ملوّثتان بالطين.

لا تتوقّف. لا تريد أن تسمعَ شيئًا.تسقط على السّجاد الوثير، تتسلّل إلى جسدها النعّومة، تتقلّب، تمرّغ وجهها فيه ثمّ تدفن ذاتَها كي تسبحَ في الوبر الطّويل. تركلها قدمٌ بحقد.

- كفّي... أتلفتِ الكثّير.

لا تريدُ أن تسمعَ شيئًا. لا تتوقّف. تتمرّغ، تخلعُ قميصها، تمزّقه، تقذف بالخبز، بالملح، بالفحم،بالغطاء،وبكلّ ما نسيت اسمه.

تركلها القدمُ بحقد أكبر... تخرج... تعود إلى الصّغار عارية. تجدهم يسيرون عراةً وقد راحوا يقذفون أشياءَ نسوا اسمها.. تجدهم يسرون مع الشتاء في جنازة الفصول.

22آذار 1973

الجسرُ

قيل لنا اذهبوا فالجسر قد انهدم. هذه هي القضية الّتي انسربَت إلى آذاننا مُجرّدةً، واستقرت في الأفئدة منّا. كان علينا أن نفهمَ كلّ شيء ترتَّبَ على انهدام الجسر. الشّرحُ في هذه المسائل تافهٌ فاقدُ المعنى كالوزن في الطّبقات العليا من الجوّ.

خرجنا نحن الأربعةُ فاستقبلنا وجهُ السّماء عابسًا ينذرُ بفَيضان جديد يسخر من عزمنا على بناء جسر قويّ؛ مكانَ الّذي جرفه الفيضان المنصرم.

- أقيموا جسرًا من حديد.

هكذا قيل لنا، وشرحُ الأسباب تافه أيضا فاقدُ المعنى؛ فالحجارةُ الضّخمة الّتي حدّدنا بها مجرى المـاء من قبل تفسّخت وتدحرجت مع الّتيار الجارف، فبات الانتقال إلى الجـانب الآخر أمرًا مستحيلا ما لم يُبنَ الجسر.

نظراتنا ترسلها ثماني عيون تتشابكُ طارقـةً آلافَ المسائل النّاجمة عن انهيار الجسر، وآلافًا أخرى تترتّبُ على بنائه من جديد.

الرّياح الّتي بدأت تكنسُ الفضاءَ انحدرت بالغبار الناشئ إلى قلوبنا المُرهفة فبدأت تنطق في صمت.

- هذه مهمّة صعبةٌ في هذا الجوّ اللّعين.

- موتنا أكثر احتمالا من بقائنا أحياء.

بدا صوتي آمِلًا ينازعُ الخوفَ عبر التقدّم.

- إن وقعَ موتُنا ففيه للآخرين حياة.

أصواتُهم تنفجرُ من صدور مضغوطة.

- الفيضان جرَفَ حجارةَ الجسر الضّخمة، أمّا الفيضان الآتي فسيكون من الهيّنِ عليه جرف أجسادِ أربعة ضعيفة.

- إنّ السّماء المحمّلة بمثل هذه الغيوم ستلد فيضانًا فظيعا.

ضحكةُ استخفاف تقيّأها قلبي وبصقَها في وجه الخوف الزّاحف بغزارة. بيد أن صوتي خرج أقوى ممّا كنت أظنّ.

- بناء الجسر لن يستغرق وقتا طويلا إن نحن تسلّحنا بالإخلاص... علينا أن نسرع فالسّرعة خيرُ ضامن للسّلامة.

انصبّت نظراتُهم عليّ في غيظٍ ترجمته ألسنتُهم.

- النّهر بعيد... وسنعلن في الوقت المناسب استحالة البناء.

الرّفض. نطقَت به أعضائي كلّها «السّهول في الجانب الآخر ستموت تحت أقدام الفيضان؛ ولن تجدَ الحقولُ الممرعةُ فأسًا واحدة تحرثُها. سيعمّها الخراب، أمّاالجوعُ فسيفتح فمَه ليلقفَ الجميع هنا،لذا لا بدّ من بناء جسر طويل قويّ».

تفشّى اليأس على وجوههم وبصقَت نظراتُهم عليّ اشمئزازًا ونفورًا ثمّ ساروا ببطء. تبعتُهم وقد دخل إلى نفسي الخوف من أنَّ الشّاهدَ الوحيدَ على جريمة سترتكب قد يُقتلُ في أيّ لحظة؛ ليموتَ معه الدليلُ بينما تبقى الجريمةُ غامضة. تلفّتُهم إلى الوراء بين الحين والآخر يؤكّد في نفسي دواعي الخوف.اضطرَبَت خطاي وبدأت يداي ترتعشـان فأسلمتهما جيبي، ثم أُجبِرتُ على الصّمت حين قال أحدهم بلسان الآخرين:

- هذا مرقصٌ تشعُّ أنوارٌدافئة منه، فلنأخذ قسطا من الرّاحة كزادٍ لمشوارنا الطّويل.

وألقوا عليّ نظرة تطلب الموافقة... ولمّا طال صمتي صاحوا بعنف:

- إنّك ترتجفُ بشدّة. أنت أحوجنا إلى الرّاحة والدّفء.

لم ينتظروا موافقةً منّي بل ساروا باتّجاه المرقص فتبعتهم فاقدَ الإرادة. جلسوا إلى طاولة مستديرةً انتحيت جـانبا منها. انثنيتُ على نفسي وهم مشدودو النّظرات إلى راقصة تتلوّى بجسدها العاري. بدوتُ بعدها مشدود النّظر إلى وجوههم الّتي تتراقصُ عليها انفعالات جمّة تنقضُّ على روحي؛ بإيقاع عنيف كعنف الموسيقا الصّادحة في المكان.

- الخمر لتكملَ دائرة السّرور.

نظراتُهم لا تسألني هذه المرّة، بل تحـذّرني من الرّفض، لذا قلّبت يديّ في حيرة وعجز. صفّقوا بأيديهم فانتصَبَت الزّجاجات على الطّاولة. أفرغوا جوفَها في الكؤوس ثمّ قرعوها بكأس أمامي... تأمرني نظراتُهم بالشّرب فيمورُ في صدري غيظٌ فظيع...صحت:

- لن أشرب... ولن تُجبروني على الشّرب.

ذابت ضحكاتُهم على جسد الرّاقصة المتلوّي فغبطتُ لهذا الجسد امتصاص إصرارهم على مشاركتي إيّاهم الشّرب.

كلّ الحقائق تغمرُها الكؤوس فيطفِئُ سراجَها نشيشٌ متّصل؛ غير أنّ جسدَ الرّاقصة يمسكُ بلسان المنطق فيخرسه لتنطلقَ الرّغباتُ جامحةً على ألسنتهم، بعد أن تطوفَ المكانَ كلّه أصابعُهم ثمّ تستقرّ عليّ.

- أليسَ هنا أكثر متعة من ضفاف النّهر؟

- لا بدّ أن السّماء الآن تمطر، ولكنّنا هنا في مأمن من المطر.

ضحكاتُهم تخلعُ قلبي وأصابعهم تشير إليّ بالاتّهام.

- سهومُك يدلّ على أنّك أكثرتَ من الشّرب.

- آه... لقد شربَ حتّى طفح.

«قلبُهم الحقائق يفقدني صوابي».

- لا بدّ أن يتمَّ بناءُالجسر هذه اللّيلة وإلاّ فسيغرقنا الفيضان، وستموت الخضرة في الحقول، وسيفغُر الجوع فاه.

يصفّقون وأرجلهم في الهواء.

- بدأ يهذي... علاماتُ السّكر تظهر عليه بوضوح.

- لا بدّ أنّه يرى بعيني سكره الرّاقصة غير عارية.

- ما رأيكم أن نحذو حذوه فنسكرُ نحن أيضا؟

«الخمرُ تجرف من رؤوسهم كلّ منطق، والرّاقصةُ تستلُّ من عيونهم النّظر، وليس هنا غيري بكامل وعيه ينشبُ الواقعُ فيه أظفارَه... لا بدّ من بناء الجسر وإن تحتّم عليّ أن أذهب وحدي».

نهضت من مكاني سريعا، تطاردني ضحكاتهم فنحرتها بالعزم على أن أقومَ وحدي ببناء الجسر هذه اللّيلة. فتحتُ الباب بعنف يساوي هذا العزم. صفقَت وجهي على الفور ريحٌ مشبعةٌ ببخار الماء أجبرتني على التّراجع.

تلفّتُّ حولي لأرى عجزي مرسومًا على وجوه رفاقي وعلى أقدامهم المرفوعة إلى أعلى بسرورٍ شامت.أعدت الكرّة من جديد فعادت الرّيحُ إلى صفع وجهي برذاذ ساحق. اختلستُ إلى السّماء نظرة عاتبة فهالني عبوسٌ قمطريرٌ يمزّق سطحها في عصبيّـة وتوفّز، فكان صفيرُ الرّيح اللّغةَ الّتي خاطَبَت بها السّماء أعصابي فرايتُ من مكاني في البعد جثّة طافيةً على الماء؛ وجسرًا تهدَّم حتّى آخر زاوية فيه. زفرت في يأس ولويت عنقي إليهم فكانوا يتطلّعون إلي في شماتة.

انزلقت نظراتي إلى الرّاقصة فكانت مـا تزال تتلوّى بجسدها العاري لتخطف به الأبصار.انثنيتُ إلى الطّاولة المستديرة وتناولت كأسي المترعة.دلقتُها في جوفي دفعةً واحدة. أعصابي المتوتّرة يطمسهـا الخدر. لساني ينطلقُ بهذيان متصل.الطّوفان قادمٌ من بعيد... يحملُ في طريقه كلّ شيء باستثناء السّفن... لا أحدَ على ظهر السّفن في الحقيقة إن فكّر بحملها... إنّه يقترب... تتحطّمُ النّوافذ والأبواب ولا تقوى الجدران على التّصدي له... يعاقبنا جميعا بصفعات من جميع الاتّجاهات سامحًا للموسيقا الصّاخبة أن تستمرَّ

بالصّراخ...أصابعي تجذب شعري... رفاقي يلفّهم صمتٌ ووجوم. يهمسون وهم يسترقون الي النّظرات.

- ها هو يصحو من سكره.

10شباط 1973

العودةُ الى الأرض

لم يَلحظْ الوجومَ الّذي خيّم على الطلبة لحظةَ اجتازَ عتبةَ الفصل إلى الدّاخل؛ فقد كان ما يزال يجترُّ مرارةَ تلك الابتسامة الّتي ودّعته بها زوجته عند الباب. ودّعته بابتسامة ليست خالصةَ السّرور، وهي الّتي اعتادت أن تقدّمَ له وجنتين كالتفّاح كلّما غادرَ البيت، أو عادَ إليه طوال الأسبوع الأوّل الّذي انقضى على زواجه منها.

تلك الفتاة رآها ذات مرّة خـارجةً من إحدى المكتبات تحتضن مُجلّدًا ضخمًا؛ فأيقظت بحسنها الفتّان قلبَه الّذي يقفُ على العتبة الأخيرة من الشّباب.ألفى ذاته يقتفي أثرَهـا بالرّغم من كونه قد لمح «ماهر» أحدَ تلاميذه؛ وأحد سكان العمارة الّتي يقطنها يشهدُ بداية المطاردة من داخل المكتبة.

استمرّ في تعقّبها حتّى رآها تدخل بيتا متواضعًا تحتضنه حارةٌ ضيّقة؛ مفروشة طرقاتُها بالماء المُوحل بالرّغم من كونِ شمس تموز تجلدُ الأرض ومَن عليهـا بسياطٍ خارجةٍ لتوّها من نار جهنّم... وقف متردّدًا أمام البابَ الخشبيّ الّذي ندّ عنه صريرٌ موجع بفعل الدّفعة الّتي تلقاها من يدِ الفتاة ذات الجسم الرّياضيّ؛ متناسق الأعضاء.

لمح من خلال الفرجة الّتي تركها البابُ الكهلُ ساحةً ضيّقةً تتقدّمُ غرفتين تصارعان في بأس ظلالَ الفقر المنتشرة على بيوت الحارة تلك؛ كمارأى الفتاة وهي تدلف إلى إحدى الغرفتين، فامتدّت يدُه إلى صدره تحتضن مكانَ القلب قبل أن يتحوّل عن موضعه؛ وقد رأى البابَ الخشبيّ يتأرجح مُصدرًا أنينا جارحا كأنّما يحتجّ على هذا التطفّل.

كانت مكتبتُه الضّخمة أوّل ما استرعى انتباهه لدى عودتة إلى منزله. وقف أمامها وراح يعانقُها بنظرات مَشوقة غير فاطنٍ إلى هذا الشّوق المُستجدّ وهو

الّذي أهملَ المطالعة منذ زمن؛ عندما رآها تحصدُ شبابَه بمنجلٍ حادّ، ثمّ انطرح على كنبة مريحة وشرع يحلمُ وعيناه مفتوحتان على رفوف الكتب، ولم يُسلّم عينيه للرّقاد إلاّ بعد أن عقد العزم على تطليق حياة الوحدة.

ألفى قدميه في اليوم التّالي تسوقانه إلى حيث الطّرقات الموحلة. وجد الباب الخشبيّ هذه المرّة يعانق الجدران المتآكلة فانسربت إلى نفسه الكآبة، غير أنّه جمع فلول شجاعته ليمدَّ يدَه المعروقة داقًّا الباب دقّاتٍ أبعد ما توصف أنّ صاحبها يزورُ هذا البيت لأول مرّة.

ظهر من فرجته وجهٌ مجدورٌ يعلوه شعرٌ أبيض منكوش. عندها فطِنَ «رشيد» إلى أنّه أبكَر في المجيء؛ بيد أنّه استبعد التّراجع حتّى بعد أن طَرَقَ سمعَه صوتٌ مشروخ لم يتخلّص صاحبُه من سلطان النّوم بعد يسألُه عن حاجته. ردّ وهو يحاول أن يُصلِحَ بالكلام ما أحدثَته ابتسامتُه الخجلى على وجه العجوز من دهشة واستغراب.

- وددتُ التشرّف بالحديث معك.

سحبَ العجوز عينيه الكليلتَين عن وجهه إلى قرص الشّمس الواهن الّذي بدأ لتوّه يتخلّص من أحضان الأفق الشّرقيّ؛ ثمّ طوّح بالباب وتنحّى جانبا بحركةٍ لم يَخفَ ما فيها من عصبيّة على «رشيد» الّذي اندفع إلى الدّاخل وقلبه الآمل يطحنُ التردّد. وعندما رأى إحدى الغرفتين مغلقةً خمّن أن تكون فتاته نائمة بين أحلام لها رائحة الورد؛ قبل أن يقوى لديه الحدسُ حين اقتاده الرّجل إلى الغرفة الأخرى قائلا ليستحثّه على الكلام:

- هذه غرفتي.

ثمّ وهو يشير إلى المُغلقة.

- وتلك غرفة...

صمتَ قليلا كمن تذكّر بأنّه لا يعرف الشابَ وأنّ حديثَه عن الغرف ليس من شأن الغرباء، لكنّه أخرجها بصعوبة في النّهاية حين لم يجد ما يقوله.

- ابنتي.

ضحك بلا سبب ظاهر وسط استغراب العجوزثمّ قال وهو يتّخذ مكانه على حَشِيَّةٍ من القشّ مطروحة.

- ما يهمّني هو ابنتك. وقد تقول في الغد هذه غرفة كانت لابنتي.

استمرَّ في ضحكته غير متنبه لنظرات الدّهشة الّتي تجلّت في عيني العجوز الّذي تساءل من فوره.

- ماذا تعني؟

لم يُجِب. بل شرع يتحدّث عن ذاتـه ذاكرًا مؤهّلاته، ومركزه، وبضعة آلاف ادّخرها كرصيد له في البنك؛ فيما كان العجوز يهزّ رأسه هزاتٍ فسّرها رشيد لصالحه فاندفع نحوه قائلًا.

- لقد توسّمت فيك الذّكاءَ أوّل ما رأيتك.

سأله العجوز وهو يُبعده عنه بلطف.

ولكن هل رأيت «نجاح» من قبل؟

- نجاح؟ نجاح؟ آ... لا... لا.

وارتأى أن يلوي عنان لسانه للحديث عن نفسه لولا أن قاطعه في شبه تأنيب من جديد.

- إنّي لفي أشدّ العجب من تسرّعك في طلبها زوجة لك؟

تذكّر مكتبته الضّخمة وتذكّر الكتابَ السِّفر بين ذراعي «««نجاح» فضحِكَ في أريحيّة؛ وقد غبط لذاته القدرة على الإيحاء بمبتغاه.قال وهو يمدّ ساقيه على حشيّة القش.

- لا عليك من تسرّعي فالبطء مُندِم.

تململت على ثغر العجوز ابتسامة بلا معنى أعقبَها بتنهُّدة ساخنة ثمّ قال وهو ينظر من خلال أهدابه المغلقة نصف إغلاق.

- فلتكن مشيئتك.

عندها وثب رشيد من مكانه وطفق يقبّل رأسَه ويديه بشغف ولهفة؛ زادا حين استطردَ العجوز قائلا برصانة يخالطها التردّد.

- ولتعجّل بالزفاف.

ثمّ استدرك رافعا سبابته مُحذّرًا.

- ولن تراها قبل ذلك، فنحن من عائلة محافظة.

ظلّ يهزّ رأسَه موافقًا يسرُّ في نفسه «ولمَ لا؟ سيتم ذلك قبل أن تصل أبولو 13 إلى القمر».

انطلق إلى منزله.وقفَ أمام المرآة يتفقّد مظهرَه ككلّ؛ فساءَه هذا الوجه المستطيل استطالة منفّرة. وجه يتوسّطه أنفٌ ضخم معقوفٌ كالمشجب تكاد أرنبته تلامس حاجبيه النّافرين، ثمّ تذكّر تحذير العجوز بأنّه لن يرى عروسه

بما يترتّب عليه أن لن تراه؛ فداخله ارتياح عجيب.شرع يصفّر مقلّدًا أحدَ العنادل حيث رآه مرّة لدى زيارته حديقة لحيواناتٍ عدّة تضمّ بينها القرود.

بدت الأيّام أطولَ ممّا ينبغي وكأنّما وصل أبولو إلى القمر وعاد ألف مرّة خلالها؛ إلى أن حلّ أخيرًا يوم الزّفاف ووقفَ على مدى التّباين الفظيع بين حسنها وقبحه؛ غير أنّه لم يلحظ منها ما يشي بنفورها، بل على العكس وجدها تُقبل عليه كصقر جائع ممّا أوقعَ في قلبه اليقينَ بأنّه لم يقدّر محاسنَه حقّ قدرها؛ وبالتّالي لم ينظر إلى القصّة الّتي أخذَت تغمغمُ بها عن كبوةٍ كبَتهَا ذات مرّة إلاّ كما اعتادَ أن ينظرَإلى كتاب قد تمزّقَ منه الغلافُ بفعلِ ازدحامِ الكتب.

ظلّ ينظرُ للقصّة على هذا النّحو إلى أن ودّعته اليوم بتلك الابتسامة المُبتَسرة، فخمّن أن التّمزّق تعدّى الغلاف إلى المتن...طرقَ رأسَه سؤالٌ مُستجدّ «ألستُ أنا اليوم مثلي بالأمس؟». ظلّ هذا السّؤال مع القصّة الّتي أباحها ضميرُه يُضيّقان عليه الخِناق طول الطّريق إلى المدرسة؛ وحتّى ما بعد استقبال الطّلبة له بالوجوم غير أنّهم عهدوه باشًّا على الدّوام؛ وما هذه العبوسة المتمركزة على وجهه إلاّ عارضٌ سيزول بعد قليل.

أفلتت من بين فكي السّكون المُخيّم ضحكةٌ مكبوتةٌ استدارَت على إثرها الرّؤوس؛ فانتبه من سهومه ليرى «ماهر» يخنقُ بأصابعه ضحكةً تأبى إلاّ أن تتفجرَ؛ مُشيّعةً الاحمرار في وجهه الوسيم... وسامةٌ أحسّ لها «رشيد» تزامنًا مع الضّحكة بمنخسٍ ينغرسُ في قلبه فصاح مغضبًا.

- الضّحك بلا سبب...

وشُلَّ لسانه قبل أن يُكملَ إذ شعرَ بمرارة الكلمات تطحنُها ذكرياتٌ أشدّ مرارة، فجعل يدور بعينيه في الوجوه المُتطلّعة، غيرَ أنّه أجرى الدّرسَ كعادته بعد ذلك، في حديث بدا أنّه لم يستطع التخلّص من مَشقّة الكلفة الّتي شاعت في تصرّفه وسلوكه طوال اليوم.

لم يشأ بعد انتهاء الدّوام أن يعود إلى البيت سريعا كما اعتاد؛ فظلّ يدور في الطّرقات إلى أن رأى النّهار يُسلّم الرّاية للغروب. حينها عاد مهدودَ القوى ليجد جميع الغرف مغلقة. بدأ بغرفة النّوم الّتي وجدها خاليةً من زوجته، ثمّ بقية الغرف الّتي حملت النتيجة ذاتها.وردت إلى قلبه إشارات غامضةٌ لم يتغافل عن مدلولها فارتقى الدّرجات المؤدية إلى السّطح.

عندما اقترب من أعلاها تناهت إلى سمعه همهماتٌ مكبوتة في حين شاهد جانبا من فستان اختفى معظمه خلف بيت الدّرج؛ كما تناهت إلى أذنيه في اللّحظة ذاتها طقطقة كأنّها حركةُ شفاه أعقبتها ضحكةٌ هلوكٌ؛أطلقتها غنجًا أوتارُ حنجرة «نجاح» بنجاح... كأنّما أصيب بلدغة مفاجئة دفعته أن يقفز إلى الأمام قفزة واسعة. صاح في تلميذه الوسيم وقد حضرته ضحكته في الفصل.

- ماذا تفعل هنا؟

انفرجت شفتا «ماهر»وبودهما الكلام قبلَ أن يُخرسَه بإشارة من يده، في حين جعلت ضحكةٌ هستيرية تضرب شغافَ قلبه لسخفِ سؤاله. فأطلق لها العنان ليطغى هديرُها على صوت الزّوجة.

- كان يساعدني في فهم بعض النّصوص.

وأشارت إلى كتاب كان في يدها. إلى الكتاب ذاته الّذي رآه بين ذراعيها أوّل مرّة؛ فاستيقظ على غفلته الحادّة. حاول أن يطفئها بالضّحك. حاولَ عبثًا ثمّ أشار بيده إشارةً فهمتها الزّوجة على الفور، حتّى إذا انحدر إلى الشّارع ممزّقًا الكتابَ بلهوجةِ المطعون صفعَ أذنيه صوتُ مذياع بدا أنّ أحدًا لا يسمعُه غيره، راح يثرثرُ بأنباء مفادها أنّ أبللو 13 قد عادت إلى الأرض دون أن تبلغ القمر.

تردّدَ النبأ من جميع النّوافذ الّتي راقبت خطاه الّتي أوصلته إلى الباب الخشبيّ ذاته عبر الدّروب المائيّة المطيّنة. نظر من شرخ الباب قبل أن يركله ويقتحمَ البيت. وجدَ العجوز في مكانه. أشارَ إلى الغرفة المغلقة وقد استغرب ضاحكًا.

- غرفةُ من هذه؟

تمطّى العجوز فوق كنبةٍ كان يحتلّها القشّ. مسح وجهه ورأسه بيديه في بطء شديد. ابتسمَ إذ رآه متجهمًا مُتحفّزًا للجواب. قال بهدوء.

- هذه غرفة كانت لابنتي.

22حزيران 1970

الصّبية والعصافير

تسارعَت خطواتُه بفعل الدّفعة الّتي تلقّاها من الخلف فأغمض عينيه تحت تأثير الضّياء المنبعث من السّماء، وأصابـه العجبُ من أنّ الشّمس ما تزال تشرقُ بضياء دافئ غمرَ أوصالَه الّتي كاد يصيبها التّعفّن من البرودة والظّلمة داخل السّور الكبير؛ حيث كانت تعيش معه آلافٌ من الأرواح السّائمة، والّتي يكاد يسمع حشرجاتِها تنزُّ من بين الحجارة الصّلدَة.

حين تخلّصَ من تأثير الدّفعة توقّف على الطَوَار النائم تحت أقدام السّور؛ فأطلق تنهّدة كثيفة مسحَت بدورها من عينيـه غشاوةَ الإهمال؛ليرى المدينة تُسلّم رقبتَها لسلسلة من حديد تمنعُها عن الحركة.

تراجع إلى الوراء بخطى عفويّة وقد تمثّل له الذّئب الّذي رآه ذات مرّة يترصّد للغنم وقد فتح فمَه عن أنياب طويلة... طويلة تسيلُ منها الدّماء فلم يرَ في خروجه من فتحة السّور ميّزةً تقترحها أفكارُه الشّاردة. لم ينتبه إلاّ حين تلقّى دفعة أخرى أجبرته على الرّجوع إلى الطَوار، فخلقت بينه وبين الشّمس تلك الألفةَ القديمة الّتي عرفها على وجه السّهول الخضر، وعلى قممِ الجبال الصّاعدة في بطن السّماء.

شرع ينظر من جديد إلى المدينة فراعَه خُلوّها من الأحياء.«الشّمس مشرقةٌ وهم نائمون!».زايلَه العجبُ حين لمحَ غيمةً سوداءَ تطاردُ القرص الملتهبَ وتُلحُّ أن تصبغه بلونها، فانعطفت حواسُّه إلى مناصرةِ صديقته القديمة، وحدسَ أن هذا الصّراع الّذي تعانيه شغَلها عن تَخضيرِ السّهول وإطالة الجبال.

حينها انتصب في ذهنه الذّئب فاغرًا فاه.همّ بالعودة إلى الدّاخل متلفّتًا خلفه لهذا الغرض فهاله أنّ الذّئب هناك يطلّ أيضا من فتحة السّور بفمه الفاغر

الّذي يتلقفُ فيه أغنام القطيع ويزدردُها بلا مضغ، كما رأى الكفَّ الّتي دفعته متأهبةً أظفارُها لأن تنغرسَ في الأحشاء منه.

زايل مكانه وقد تذكّر بصعوبة أنّ له بيتًا في طرف المدينة تتقدّمُه شجرةُ حور باسقة؛ حطّت عليها ذات يوم عصفورة ورديّة، بنت لها عشّا على القمّة.لطالما رآها من نافذة البيت رائحةً غاديةً تجلبُ لصغارها الحبّ والحُبّ.

وقبل أن يرفرفَ الصّغار في الفضاء تسلّق صبيةُ الشّجرة واختطفوها في غفلة منه، فعادت العصفورةُ إلى بناء العشّ، وعاد الصّبية مجدّدًا إلى اختطاف الفراخ قبل أن تطير... ظلّ الصّراع قائمًا بين العصفورة والصّبية إلى أن تسلّق أحدهم الشّجرة الّتي انكسر منها فرع أدّى لسقوطهِ من علوّ؛ وإصابته بكسوردائمة في أكثر من موضع.لذا ترك الصّبية هذه العادة فانتعشت الشّجرة بالعصافير الصّادحة، وانتعشت نفسُه بسماعها وهي تصدحُ إلى أن أخرج من بيته عنوة في ليلة مظلمة وأُدْخِلَ السّور.

أمسكت أحداث تلك اللّيلة بتلابيبه ولم يخلّصه منها سوى تذكّره من جديد سقوط ذلك الصّبيّ عن الشّجرة.. انسربَت إلى قلبِه حفنةٌ سعادة أمدَّته بقوّة عجيبة حاول معها أن يركض إلى بيته؛ إلاّ أنّ رمادًا ساخنا فُرشت به أرضُ الشّارع منعَه من الرّكض المُنظّم. حاول أن يستشرفَ بنظراته مدى الاحتراق فانغرست في مآقيه حِرابٌ مشرعة؛ في كلّ شبر منعته من التطلُّعِ الحُرّ، فتسلّلت أذناه إلى البيوت المغلقة لتلتقطا حشرجاتٍ هرمه.

خمّن أنّ الرّمادَ قد افترش البيوتَ أيضا. «الرّماد ذاته كان باردًا داخل السّور، عانى من برودته كلّ لحظة تساوي في طولها دهرًا بأكملهِ فتاق للخروج كمن لم يعِ قرار المحكمة الهزيلة.

- لا بيتٌ لك ولا أرض، وحتّى الشّارع اغتصبتَه في القديم وجميعُها كان يضمّها سورُنا الّذي اشتركتَ مع الآخرين في دفعه إلى الدّاخل حتّى بدا كالسّوار في معصم الجارية.

لم يعِ هذا القرار كما لم يعِ جوابا لسؤال نشأ كليلا في نفسه.

- الكهوفُ كثيرة على جوانب الوديان ستسكن فيها.

وسمع نهايةَ القرار خافتةً كأنّها قرقعةٌ بعيدة لكلاب تنبح.

- الطّحالب وفيرةٌ هناك... بإمكانك أن تقتات منها.

حاولَ أن يتكلّم بيد أنّه ألفى لسانه مربوطا فبدا السؤالُ في نفسه ينحرُ الجواب.أمّا الدّفعة الّتي تلقّاها من فم السّور فقد رسمت قمّةَ التّنفيذ؛ وها هي آثار الأصابع يحسُّ بها إذ ما تزال خشنة دامية على جسده، كما أنّ سخونةَ الرّماد تخطّت مجال الدّفء لاسعةً قدميه العاريتين».

جرى حتّى انتهى إلى بيته. حاول أن يَدخلَه غير أنّ عيونا حاقدةً كانت تطلّ من النّوافذ، ومن أغصان شجرة الحور سمّرَته على الباب...هتف صوت من الدّاخل:

- إلى الكهوف، الوديان ملأى بها.

تذكّر قرارَ المحكمة الّذي كاد ينساه فأدرك أنّه صدَر قبل المحاكمة؛ فجاشت نفسه بالأسى وهو يرى ذراعي بيتـه تمتدّان نحوه لاحتضانه ثمّ تتكسّران تحتَ وطأةِ أيدٍ قاسية. أطلّت شجرةُ الحور ورأسُها إلى أسفل حين كانت العصفورة تخبّئ صغارَها بين الأغصان النّحيفة.

أغمضَ عينيه واستدارَ تاركًا المدينة؛ ثمّ انحدرَ في طريق طويلة نبتت على جانبيها أشواك أحسّ برؤوسهـا تشكّ قلبَه وتدميه. استطاع بمشقّة أن يرى طيفا يسيرُ على بعد. «إذن ما يزال هناك أحياء!» غذَّ السّيرَ فاكتشفَ قامة

لآدميّ قصيرة قصرًا يضاعفه تلٌ في الظّهر ليس مبعثه رزمة ملقاةً على الكتف، كما ظهرت له خطوات متباعدة لساقين معوجّتين؛ فأسرع كيما يساعده على حمله.

ولمّا صار على محاذاة منه طرح السّلام بصوتٍ خثّره الصّمت الطّويل؛ غير أنّه لم يتلق جوابا سوى نظرة فزعة تتقافز من على وجه طفل لم يتجاوز العاشرة. تجمّدت على مآقيه الدّموع فبانت كالخناجر المسنونة وانغرست في صدره.سمح لعينيه دون وعي بترجمة أحزانه متسائلا.

- إلى أين أنت ذاهب؟ لمَ لمْ تبق في المدينة؟

أدرك على الفور سخفَ مقاله، سُخفًا نطقَ به الفراغُ المتفشّي على وجه الصّبيّ، فقال بصوتٍ هادء النّبرات وهو يتملّى من ملامحه.

- لم أرك في السّور اللّعين، ولكنّي متأكّد من كوني قد رأيتك من قبل.

ابتسم الصّبيّ ابتسامةً مشروخة، ثمّ قال بصوت خشن دقّته آلافُ المطارق.

- كنتُ كلّ يوم أقف خلف نافذة بيتي أتطلّع إلى ذاك السّور فأرى من فيه. لم أرهم بعينيّ طبعًا.

- ولهذا طردوك؟

- حطّموا زجاجَ النّوافذ وبنوها بالحجارة، ومع ذلك ظللتُ أرى من في داخل السّور.. قد رأيتك هناك.

سكت برهة ثمّ أردف.

- كما كنتُ أراك قبل إنشائه.

- آه رأيتني؟

قالها بنبرة اختلط فيها الأسى بالسّرور بعد أن وضعَ يده على كتف الصّبيّ.شعر بهزّه في الجسدِ الضّئيل فعاد إلى رفعها بالرّزمة البالية؛ وقد علَّقَ طعمًا في بحيرة فكرهِ ليصطادَ ذكرى تُلحُّ عليه، ثمّ هتف وهو يرمي بالرّزمة في الهواء ويعاود التقاطها:

- الشّجرة والعصافير والصّبية؟

هز الصّبيّ رأسه بالإيجاب.

فعاد إلى ذات الهتاف السّعيد.

- كنتَ واحدًا من أولئك الصّبية؟

أومأ برأسه عميقا إلى أسفل فاحتضن الرّجل بصدره حفنة من الهواء منعشة.أمسك بالذّكرى القديمة في حنان بالغ يقلّبها بين يديه فاستشعر لها دفئا لذيذًا، ذلك الدّفء الّذي دخل معه السّور يومًا ومات فيه ودفنه في صدره، وها هو يُبعث من جديد... هتفَ بصوت زفّته مشاعر وثّابة مشيرًا إلى الصّبيّ.

- أنت من سقطَ من عن شجرة الحور الباسقة؟

أومأ برأسه وقد أشرق وجهه بفرحة انتقلت إليه بالأثير فمسحت عن وجنتيه آثار الدّموع.أخذه بذراعه واستدارَ به ناحية المدينة قائلًا وأذناه تستقبلان خشخشة سلاسل تتكسّر.

- لا بدّ أنك ندمت أشد النّدم على تسلّقك الأشجار العالية بحثا عن العصافير؛ وإلاّ لاستحالت عليك رؤيتي داخل السّور؟

هزَّ الصّبيّ رأسَه بمعنى نعم فصاح.

- إذن هيّا بنا. سنجد أسفل شجرة الحور أكثر من جسد مُحطّم.

وسار بالصّبيّ وهو ينظر إلى الشّمس وقد رآها تطعن الغيمةَ السّوداء بحراب من شعاعها المُلتهب؛ ثمّ أبصرَ الغيمةَ وهي تهوي على ذلك السّور لتصبح سقفًا له.

7 كانون ثاني 1973

مهرجان الشّمس

هبَّ من رقادِه مذعورًا وأسنانه تعضُّ لسانه؛ وحلقه يقبض على صرخة أحسّ بها تنساب تنهدةَ ارتياح.«فالأمر إذن كان مجرَّد كابوسٍ مريع؟ تحسّسَ رقبتَه ليتأكّدَ أن ليس هناك حبل ربطَه إلى السّقف؛ ولا كرسيٌّ وقفَ عليه حتّى غدت رقبته بين الدّائرة قبل أن يدفعَ الكرسيّ بقدمِه ويسقط بجسده وقد اختنقت أنفاسه».

سحب حفنةً من الهواء بحجم ضعفي رئتيه يعوّض بها ما فاته في المنام، ثمّ دفعَها على مهل، وقبل أن تكتملَ الدّفعة اعترضها سيلٌ من أفكاره السّود؛ فلام نفسه على هذا الارتياح الّذي يشعرُ به لكون الأمر غيّرَ حقيقةً طالما تمنّاها.

«الحياة ظلٌّ لشمس مكسوفة على الدّوام تتحرّك فيه أشباح مخيفةٌ تتسلّحُ بالحقد والتّشفي، وأنتَ شخص ضائعٌ ترتمي عليك ظلالٌ باردة لتمسخَ صورتَك الأصليّة..تلك الأشباحُ تحاربُك والشّمس لا تنفكّ تتستّرُ على معاناتك المؤلمة، تغمرُ بضيائها الأرجاءَ وأنت وحدَك مُلقى في الظلّ البارد... فلمَ لا تطرقُ بابَ الموت كي تُسمعَه شكواك فيمدَّ لك بدوره ذراعَه الحانية ليريحَك ممّا أنت فيه؟».

لامَ نفسَه مرّة أخرى على استقباله الخلاصَ الزّائفَ بفرحة وسرور.تقلّصت أصابعُه على عنقه يودُّ لو يستلُّ منه الأنفاس.«فما قبولك بالحياة على شقائك فيها إلاّ كرضى العبد يدوسُه مولاه صباح مساء، يتوق للخلاص حتّى إذا تهيّأ له حنَّ للسّوط يُضرَبُ به وللنّعال تدوسه، فكلّ النّعم الّتي تتناثر على غيرك من البشر أنتَ تحديدًا محرومٌ منها! فلا جاهٌ لديك ولا مالٌ ولاجمال؛ مغمورٌ كالسّرور في مأتم، وجيبُك أبيض من قلب المؤمن، وسحنتُك تسخرُ منها

القرود. وسببٌ واحدٌ من هذه الأسباب كان كافيًا لأن تنفر منك تلك الفتاة الّتي قلت معبّرًا عن إعجابك بها.

- تبارك الّذي خلق.

تطلّعت إليك باشمئزاز وردّت كأنّما تُكمل بيتًا من الشّعر.

- قِردًا بلا حَلق.

لم تنقم على تلك الأنثى بل توجّهت إلى نفسك تُفرّغ فيها حقدَك وغلّك».

«كنتَ تدركُ أنّها لا تحملُ مصباحًا وسط هذه الظّلمة الدّاهمة تجوسُ فيها كأعمى فقد عصاه. رغباتك محرّمة عليك كبصقةٍ في وجه محسن. والحواسُ الخمس كلّها تتآمر عليك؛ تدلّك على مواطنِ اللذّة وتقطع بينك وبينها الأسباب، ولا تنسَ أنّ قدميك تمثّلان قمّةَ التّآمر إذ تنقلانك إلى أماكن ترى فيها حرمانَك منتحرًا على الأبواب، ففيمَ تشبّثك _أرجوكَ وضّح لي_ بحياة مقوّماتها مفقودةٌ بالكامل لديك؛ كالتّذكرة المقروضة الّتي توهم الرّائي من بعيد أنّ حاملها دفعَ أجرةَ السّفر، وتدفع صاحبها إلى الضّحك بعد اكتشافه أنّه استقلّ القطار الخطأ».

صوّب اللّوم ناحية نفسه من جديد جرّاء ارتياحه لفشل الكابوس بأن يكون حقيقة واقعةً؛ يضعُ الموت بها نهاية لمشاعر تتواثب داخل قفص من حديد. أنّه دون أدنى شكّ يكره هذه الحياةفلمَ لا يسرع بوضع نهاية مريحةً لكل ما يقاسيه من عذاب؟

عاد إلى استعراض ما مرّ به في المنام. تعجب من فكرة الانتحار بالحبل؛ فهي لم تخطر له على بال في المرّات العديدة الّتي رجَّحت كفّةُ الموت على الحياة. لطالمَا رغِبَ في أن يُلقي بنفسه من مكان شاهق. يريد أن يعلوَ على

كلّ شيء في هذه الأرض ولو للحظة واحدة، يحسُّ بها أنّ حذاءه يدوسُ الرّيح. وحين يسقط فلن يهمّه في أن تكون جثّته بين أقدام النّاس الّتي لطالما داسته.

لعلَّ روحَه حينها ستظلُّ في مكانها على الذّرى العاليـة. بدا على يقينٍ تامّ بأن سيحقق هذه الرّغبة في لحظة تتبخّرُ من نفسه آخرُ ذرّة من دنس الدّنيا لكنَّ هذه الذّرة الأخيرة حين فتّش عنها جاهدًالم يجدها... استغرقَ مُتعبًا بعد عناء البحث في تلاشيه أو استغرق التّلاشي فيه. لا يدري. قلَّب يديه في الهواء.

«اللّحظة الرّاهنة تكون دائما هي المواتية للخلاص من أتون الحياة؛ إذ إنّ أحوالَ النّاس تدفعه باستمرار إلى مقارنةٍ خاطفةٍ يخرج منها في كلّ مرّة خاسرًا كلّ شيء، فخسارةُ شعرةٍ واحدة على سبيل المثال في مرض الصّلع كفيلةٌ أن تخلق التبرّم في نفس المصاب وتدفعهُ للاكتئاب؛ فكيف بكَ وأنت الخاسرُعلى الدّوام لكلّ شيء، ولكلّ ما فيك وما ليس فيك؟».

طفقَ يجمعُ خيوطَ هذه الأشياء البغيضة فتكاملَ عنده تابوتٌ طويل عريض تتوفّر له فيه حريّةُ الحركة أكثر من هذا الصّحن الطّائر؛ الّذي تقودُه عيونُ النّاس في الدّنيا.. تلك العيون رآها على الدّوام تبرقُ في الظّلمة باعثة عبر نظراتها الحقدَ المرير. أغمض عينيه كيلا يراها فسرقَه النّوم بعد أن أسلمَه الإعياء إلى الفراش من جديد.

لم يَصحُ إلاّ والشّمس تغمرُ المكانَ بخيوط من ذهب فاستمرأ الاسترخاء في هذه اللجّة الرّائعة؛ ثمّ فطنَ إلى عزمه فانكمَشت أعصابه وتشقّقت روحه.تراءى له رمادٌ محروقٌ على خيوط الشّمس يصبغها بلونه القاتم، كما أحسّ بالهواء يغزو صدرَه في ثقل الرّصاص. حاول أن يطردَ حفنة منه ثقيلةً ليستقبل أخرى خفيفة.

شعر وكأنّه ينفخ في بالون لا يلبث أن ينفجر فكتم أنفاسه للحظة أحسّ معها بأوصاله تحترق...غزا دماغَه نشيشٌ هائل مختلط بدبيب صمتٍ يذرعُ

المكان، تحوّل إلى قرقعة هدمتَ ذرات جسده. حاول أن يتخلّص من هذه الهجمة بالنّهوض فاكتشف أنّ قواه قد هربت عنه وتركته كزورقٍ تائه وسط بحر متلاطم الأمواج.

تسلّلَ الضّعفُ إلى عينيه فلم يعد يبصرُ الأشياء إلاّ كأشباح تمشي على رؤوسها وأقدامها في الهواء. لم يعد يفكر سوى أنّه يسير حثيثًا إلى نهاية يمتطي الضبُّ فيها ظهرَ حصان...حضرته تباعًا النِّعمُ الّتي سخر منها فتمنّى لو أنّه يستطيعُ أن يتنفّس أكثر، أن تواتيه القوّة كي يمشي خطوات على أرض الشّارع؛ فتداسُ قدمُه بأقدام النّاس أو أن... وأن... وأن.

غمرته الأمنيات من كلّ جانب واندفعت بسيلها متدثّرةً بشعاع الشّمس الّتي راحت على غير عادتها تغسلُ أفكارَه السّود، وتذيب من صدره الرّصاص الّذي يثقله؛ فاستطاعَ أن يرى خيوطَ الشّمس زاهيةً مُذهّبة ترقصُ على جثّة الرّماد القاتم.

21 كانون أوّل 1972

سارقُ النّار

هي تهمسُ وهو يصغي، هي تضحكُ وهو يستمتعُ. هكذا كان «شكري» يراهما دائما؛ إذ كان مفروضا عليه كلّ صباح أن يستقلَّ الباصَ الّذي يركبانه إلى البلدة الّتي كان يعمل معهما فيها. ولو كان يدري أنّه سيُرجم بهذه المفاجأة الّتي تنكأُ جراحَه على الرّيق لما ألحَّ في طلبِ نقلهِ من أقصى الجنوب إلى هذه البلدة. تفصلُها عن مكان سكنه في العاصمة مدّة نصف ساعة راكبًا الباص. وطيلة وقوف هذا في المحطّة وقطعه الطّريق مكتوب على «شكري» أن يقرَع أذنيه الصّوت النّاعم كحفيف أوراق الشّجر، يترنّم بكلماتٍ تغمرُها ضحكاتٌ نشوى من حنجرة الزّوجة السّعيدة.

حتّى في زحمة العمل كان يراهما يختلقان أسباب الكلام. «هذا حالها في العمل فكيف الحال في البيت؟ لا شكّ أنّهما يعتصران الدّقائق؛ بينما فم خديجة برائحته الكريهة نصيبي من هذه الحياة؛ ناهيك عن قفزها فوق حواجزِ الصّمت لتزعق بي كي لا أتدخّل في تربية الأولاد..صوتها الرّجوليّ يخرج مجروشًا من بين أسنان لها رؤوس المطارق».

كلّما تذكّر قصّةَ زواجه منها يصيبُه ما يشبه الإغماء؛ فقد رفض أن يتزوّج إلاّ هي حين رغبَ في الزّواج، بل هي الّتي جعلته يطلّق حياةَ الوحدة لحظة أن رآها لأوّل مرّة مصادفة أمام مشفى يودّ الآن لو ولجَه ميتًّا قبل أن يراها... أحسّ يومَها من نظرتها الأولى إليه أن لن يظلّ أعزبًا أكثر من المدّة الّتي يقتضيها التّعارف فتطوّع لمراقبتها.

رآها تتردّد على المستشفى بكثرة فغرسَ تردّدَها في نفسه الجرأة. سألها عن السّبب فقالت إنّها تزور قريبة لها تنزلُ منذ أكثر من شهرين في هذا المشفى، ثمّ عادت واعترفت بأنّها تشكو من التهاب مزمن في اللّوزتين، فوقف على

السرّ في ضخامة صوتها حتّى إذا كانت خلفَ ستارٍ ظنَّ سامعُها أن المتحدّثَ رجلٌ مكتمل؛ بيد أنّه لم يفكر في الخلاص حيث كان يدرك أنّه لو فكر لمنَعه خيطٌ حريريّ قيّدت بـه روحَه فلا يستطيع عنها انفصالا.

وكما كان شعوره بالحبّ سريعَ الغليان فشعوره بالبرودة كان أسرع؛ حيث وصل إلى درجة الصّفر ولمَّا ينقضي شهرُ العسل بعد. بدأ هجومُه على صوتها الفظيع حين اكتشف أنّه الإطار البغيض لعيوبٍ كثيرة تتبارى في خنق روحه واعتصارها؛ بيد أنّه آثر السّكوت حالَ اكتشافه أنّ هذا الصّوت يكون أكثر فظاعة ممّا هو عليه؛ حين يخرج غاضبًا لتشنَّ به حملة مضادّة. «أين كان عقلي؟».

ظنَّ البيتُ يمتلىء برائحة حريقٌ أخرس إلى أن نزل فيه أوّل وافد، فبدأ يسمع زوجته تغنّي لتُطرَبَ الطّفلَ الّذي أهملت كلّ شيء عداه.كانت تصرُّ على الغناء عندما تلاحظ سحابةً من الغمّ تكتسحُ وجهه؛ فيهربُ من البيت وأصابعه قد جعلها في أذنيه.

ولمّا كان في قرية نائية وقد ضاقت به سبل التّرفيه ألحّ وسط استغراب رؤسائه في طلب النّقل؛ كي يرتمي في الثّلج عندما تلقيه زوجتُه في النّار، بيد أنّه وجد أمامه تلكَ الّتي تهمسُ بصوتها العذب الّذي يُصغي إليه باستمتاع؛ نبشَ عن قلبه الّذي تغطيه طبقة الإهمال تقرّبه من حافّةِ لَحْدٍ مُظلم رهيب.

كان خياله يطاردُ الزّوجين السّعيدين إلى البيت؛ فيقفُ على الظّلم الّذي حفرَ أساسه بيديه.أخذ إحساسُه بأنّه ظُلِم يزدادُ كلّما انقضى يوم يبشّر بوافد جديدٍ على البيت وظيفته أن يربطه بزوجته بسلاسل حديديّة؛ لا تحطّمها يدا شمشون الجبّار. هذا الإحساس واكبَه من البداية فحاول أن يجرّب الوسائلَ الصّناعيّة علّها تضعُ حدًّا للإنجاب؛ فواجهته بعاصفة يقودُها صوتُها الضّخم فآثر السّكوت حفاظًاعلى الأوراق الخضراء الّتي بقيت عالقةً في عودِه الجاف.

عرفَت تلك الأوراقُ سببا آخرَ للتّساقط بعدما رأى السّعادة الّتي حُرم منها ترفرف على هذين الزّوجين. وجدَ أنّه دائمُ الشّوق إلى مذاقها اللّذيذ. بودّه أن يغترف من على وجهيهما ذاك المذاق ولكنَّ انطواءَه يزيدُ أساه، يحرقُه الحرمانُ في أتون مُلتهب فيتمنّى لو يجدُ من يشاطرُه اللّهيب.

لم يدر أنّ خواطرَه كانت تحوم حول ذينِك الزّوجين السّعيدين إلاّ حين رآهما ذات صباح يصعدان إلى الباص يفصلهما وقت طويل، ثمّ يُخيّم عليهما طيلة الطّريق وأثناء العمل صمتٌ ذو فكين تجرحُه زفراتٌ كثيفة من كليهما بالتّناوب... عبرَت إلى قلبه نسمة مُشبعة بعطر لذيذ أنَّب عليها ضميره، ثمّ ما لبث أن فكّر بالاطمئنان على دوام هذه النّسمة؛ بيد أن عزلتَه الّتي فرضها على ذاته لم تشجّعه على الاقتراب كي يستقصي عن سرّ هذا الجفاء فآثرَ التّرقب.

لعدّة أيّام استمرّت فيها حالةُ الزّوجين هذه فلم يُطق صبرًا فراودته نفسُه بعنف أن يقترب من الزّوج ويسأله؛ لولا أن رآه ذات يوم يقتربُ منه أثناء العمل في خجل ويقول:

- أنت رجلٌ عاقل خبير كما يظهر عليك.

فخفَّ شكري إليه وبسطَ له جناحيه قائلًا:

- تحت أمرك... اسمي شكري... ولعلّه من الغريب أن لم نتعارف من قبل. في الحقيقة منعني من ذلك ملازمة زوجك إيّاك.

أرسلَ نظرةً نفّاذة فور قوله هذا إلى أعماق الرّجل الّذي تسلّحَ بالقنوط.

- وأنا عصام... لا بدّ أنّنا سنجد الوقت الكافي ليتعرّف أحدُنا على الآخر، فهي لن تلازمني بعد اليوم.

خفقَ قلبُه بشدّة ولكنّه تصنّع الدّهشة.

- لن تلازمك؟ لا بدّ أنّ الأبناء سيمنعونها من العمل؟

أطلق الرّجل زفرةً ساخنة.

- لا أبناء لنا، بل عدمُ وجودِهم هو سبب القطيعة... اليوم سنرتّب حيثيّات الفراق إن لم أجد حلّا مناسبًا.

تحرّك مؤشر قلبه وزادت حركته بعد عدّة جملٍ استشفَّ من خلالها أنّ الرّجل غارقٌ حتّى أذنيه، وأنّه القشّة الّتي يراها في غرقه فيحاول التقاطها لتلتقطَه، سيما بعد أن قرأ على وجهه ثقةً عمياء مردّها إلى ضياعه أكثر منها بسبب الحديث القصير الّذي دار عن الزّواج والأسرة والصّبر وغير ذلك... اكتملت هذه الثّقة حين قال له بنبرةٍ تحمل الكثّير من الرّجاء والتوسّل.

- لمَ لا تذهب _إن تكرّمت علينا_ إلى البيت لنتحدّث بهدوء؟

جاشت عواطفُه وأحسَّ وكأنّه يعانق بدرًا يُشرق عليه وحده. أنّبَه ضميرُه قليلا لكنّه ركله بقسوة. «فلتغرق المراكبُ كلّها طالما أصاب مركبتي العَطَب». ظلَّ بعدها يشحذُ هذه الشّوكة بين أسنانه وهو يستمع إلى صوت المرأه العذب المنساب كانسياب الماء وسط جنانٍ خضراء.

لم ينتقص من قيمته النّغمة الحزينة الّتي بدأت تشرح بها تعاستها مع ذاك الّذي تنكّر لعشرة العمر من أجل أولادٍ لن يزيدوا في سعادة لم تحرمه منها؛ إن لم ينقصوا منها... مسّت هذه النّغمة الحزينة شفافَ قلبه ففتحَ صمّام الغازَ على الشّرر المتطاير من شفتيها بأن قال:

- لا فائدة... عصام من الرّجال الّذين يحبّون الإنجاب ويضحّون بكلّ شيء عداه... أمّا أنا مثلا فعلى النّقيض منه تمامًا.

ثمّ ضحكَ ضحكةً هزيلة أعقبها بالقولِ ملتفّتًا ناحية الزّوج.

- خذ أبنائي. كلّ أبنائي فأنا لا أرغب فيهم.

تطلّع إليه هذا بنظرةٍ مازجها الغيظ.

- ظننتك للحلِّ فإذا بك للرّبط.

فصاحت الزّوجة مغتاظة.

- أرأيت؟ أنّه لا يفكّر إلاّ في نفسه... أنانيّ، سخيف، مجرم.

ثمّ حملَت ذاتها وخرجت وهي تقسم أن لن تعود إلى البيت ثانية، بينما لحق بها شكري عند الباب واسترجعها بلهجةٍ مائعة ضاعفَت من إصرارها على الفراق.التفت إلى الزّوج هازًّا كتفيه بمعنى أن لا فائدة ترجى؛ قبلَ أن يتبعَ المرأة ويزفّها بالحديث عن تعاسته مع زوجه وأولاده الّذين زادوا من هذه

التعاسة؛ حتّى إذا لامس منها استنامة لحديثه قال في حرارة أطفأت نظرات الأسى الّتي تسيل من عينيها.

- من يسمعُ تغريد البلابل لا يهمّه إن لم يكن لها فراخ.

توقّفت كأن جملتَه ايقظتها ممّا هي فيه. ابتسمَ كمن ينتظرُ جائزة طال انتظارها بعد مسيرةٍ مكلّلة بالعناء والمشقة.

- لكنّها بحاجة للشّجرةِ الّتي تغرّد عليها... لا ينبغي قطعها بأيّ حال من الأحوال.

تركَت ابتسامته في مكانها على وجهه وقد تجمّدت ملامحُه عليها وانطلقت تعانقُ زوجها الّذي تلقّفَها في عناقٍ طويل؛ وقد راحَ كلّ منهما يمسح دموع الآخر، قبل أن يتدحرجَ كشجرةٍ مقطوعةٍ من قمّةِ مكره إلى واديهِ المعتاد.

21ايار 1971

مجموعةُ صورٍ في إطار واحد

(1)

القبرُ يمشي

وقفَ على الحفرة الغائرة في بطن الأرض فهاله أنّها تمتدّ وتمتد لعمقٍ دمعَت له من التّحديق عيناه. نظر إلى التّراب النّاتئ منها فهاله مجدّدًا أنّه يمتدُّ ويمتدّ لارتفاع دمعت له من التّحديق مجددًاعيناه. نظرَإلى الجسد المُسجّى فهاله انتفاخُه لدرجة أحسّ معها بأصابع تقبض على أنفاسه وتستلّ منه الحياة.

أغمض عينيه فرأى في داخله ذلك العمق السّاحق الّذي يدرك لو رمى فيه بألف حجر ما وصل واحد منها إلى قرار. تمعّنَ بسمّاعة الطّبيب تتنقّلُ على جسمه بحركات دقيقة، ثمّ سمعه يقول«رئتك اليمنى كالمُنخل...مصرانُك الأعور فقدَ عينه السّليمة... قلبك منقبضٌ لا تثيره مائة نكتة طازجة... معدتك رأس الجسر الّذي تمرّ عنه الأوبئة إلى وجهتها في كاملك».

تعطّل لسانه عن الكلام والتصقت بجسمه أكثر من أذنٍ إضافيّة تذيب كلامَ الطّبيب سُمّا تشربُه أعصابُه المتوتّرة. تذكّرأثناء وقوفه السّمكة الّتي التهمها مع زجاجة وافية من عصير العنب المختمر. «لا بدّ أنّ تلك السّمكة كانت ميتةً إذ لم تتحرّك، أمّا العصيرُ المُختمر فله رائحةٌ مقرفة كادت تمنعه من دلق العصير في جوفه، لكنّه فعل... لا بدّ أن السّمكة والخمر هما السّبب فيما شعرَ به من انهيار مفاجئ ساقه إلى الطّبيب الفظّ هذا». قال بلسانٍ مرتعش.

- السّمكة اصطدتُها بصنارتي من البحر، والخمر من عنب كرمي وقد صنعته أنا بيدي.

قلّبَ الطّبيب شفتيه عجبًا وواصل كلامه كأن لم يسمعه. «أمعاؤك مهترئة تُسرّب الفضلات إلى الأوردة»... ««آه»» جأرَ بها أمام الطّبيب وبها أيضا

زعقَ أثناء تحديقه في الحفرة... اختلسَ إلى الجسد المُسجّى نظرةً وجلة دبَّ فيها الفزع.

«كلّ هذه الأميال مشاها في جنازة كلب! حوّل نظرته إلى كومة التّراب النّاشئة فألفاها ضئيلة فاستبعدَ أن يكونَ مصدرها الحُفر الهائلة. «سينزلقُ الكلب إليها وسيعود التّراب إلى قلبها... الفراغُ وحده ينطق بالأثر الباقي... وهو سيتآكل بالتّدريج أثناء مشيهِ بينما أشياؤه الميتة مدفونة فيه... أمرٌ لا يُحتمل». أغمضَ عينيه وانزلقَ إلى الحفرة الغائرة في بطن الأرض وأهال من بعده التّراب.

(2)

ضعفُ القوّة

طَلَبه المديرُ مرّتين؛ الأولى كان وقتها في ساحة الدّار بين مجموعة لصوص سطوا على جيوبه فلاحقهم وقد نسيَ أنّها كانت في الأمس خاوية... ضربَه أحدهم بموسى فشقَّ بطنَه قبل أن يسقطَ على الأرض. عندها حمد الله أنّه كان مجرّد كابوس، ثمّ حمده ثانيةً على الفقر الّذي لا يجعل منه مطمعًا لأحد.

في المرّة الثّانية طلبه المديرُ بالهاتف واشتمَّ من رائحة الطّلب أنّ في هذه المرّة أكثر من تمزيق أوراقٍ؛ وقذفها في وجهه لمجرد خطأ أحدثته الآلة الكاتبة الّتي يعملُ عليها؛ ممّا يضطرّه أن يعيد ويعيد حتّى بلغ ما أعاده في إحدى المرّات المئة وكلّها أخطاء تتحمّلُ وزرها الآلة الملعونة.«هذه المرّة أخطاء نوم الصّباح اللّذيذ، فهل سيقذفُه المدير بمزقِ الأحلام المزعجة؟ سيقف أماه مطأطئ الرّأس أثناء المدّة الّتي ينظر إليه ذو الرّأس الصّلعاء منتشيا بخضوعه؛ وعندما يتجرّأ وينظر في عينيه ستخونُه ركبتاه اللّتان أعلنتا خذلانها إيّاه بمجرّد أن أفرغ المدير رصاصاتِ لسانه في أذنه. «حالا... حالا».

المصعدُ مُعطّل ولن ينتهي الدّرج الطّويل إلاّ بعد أن يتعانق منه الشّهيق والزّفير مع الطّابق السّادس؛ الّذي يحتلّه المدير كونه أعلى من أحلامه القديمة والحديثة. أنفاسه تحرق صدره... أفكاره تلهب رأسه، هل سيكون نصيبه الطّرد فيمتدّ النّوم في الصّباح ويمتدّد حتّى يتّصل باللّيل؟

أصوات وجلبةٌ وقعقعة كاستلال السّيوف وإغمادها. هوى من جانبه جسمٌ كالسّهم. التفت فكان المدير بعظمته وجلال قدره مُشمّرًا عن ساقيه يقفز الدّرجات إلى أسفل....رآه ينحني وينحني حتّى لامست جبهته الأرض. زيارة

المفتّش العام ستنشرها الصّحف، وصورة المدير غير ظاهر منها سوى ظهره المقوس.

«آه» سيتقلّب في الفراش حتّى تتكبّد الشّمس السّماء ففي اللّيل كثيرًا ما يتأخر عن البيت، وحين يعود يستقبله نباحُ كلب أسمر يعلو ويعلو، وتلمعُ عيناه في الظّلام تسدّان عليه الطّريق، فيضطر إلى تغيير سيره أو يتخلّى له عن كسرة خبز يتلهّى بها ليواصل طريقه؛ أمّا هذا اليوم فقد عاد إلى البيت متأخّرًا كعادته فلم يسمع النّباح، ولم ير العينيين أمامَ طريق كانت على غير عادتها مفتوحة على مصراعيها.

رأى الكلب مُلقى على التّراب بداخله صوتٌ ميت وعلى مقربةٍ منه رأى ضبعا مقعيا يتحفّز...قرأ صحف الصّباح فلم يكن ظاهرًا من الكلب غير ظهره المقوّس، فعاد إلى الفراش يستمتع بالنّوم اللّذيذ، واستمتع.

(3)

عينان

لها عينان ككلّ النّساء، ولها عينٌ واحدة من دون النّساء جمرة متوهّجة على الدّوام، تشيع الدّفء في قلبه المقرور. العين الثّانية في برودة «الآيس كريم»ترطّب قلبَه وقت الهجير. الشّمس في أحضانها دائما في شروق أو غروب. هي الأفق تنطبق عليه السّماء، ليس فيها شبرٌ واحد بلا ضياء؛ ولكنّه لا يرى.

ليس العيبُ في عينيه فهو يرى صدرها يطرحُ رمّانتين دائمتي النّضج، ويرى الخدّين في حمرة الشّفق؛ شفتين مضمومتين على قبلة دافئة يستطيع أن يتذوّقها عن بعد... بقيّة النّساء يحملن فجَّ الثّمار وهي وحدها ناضجة. «لا بدّ أنّها مصدر الإشعاع لكلّ شيء». بهذا ينطق قلبه، وايمانه بها لا تطحنُه الشّكوك.

وعيناها... عيناها عنوان عقيدته اللّتان تجمعان الصّدق. لا مناص من الإيمان والهوى يسبح فيها ويرشق وجهه، يدفعُ عنها الألسن الجارحة، تضربها بالسّيوف، عيناها والسّيوفُ بعضها يجرحُ والآخر في كفّه الدّواء... ثمّ... تتغيّرُ الفصول.. وعيناها ثابتتان... جامدتان... والأفق يندحرُ، والشّمس تظل في غياب. والسّماء تموت فيها النّجوم، وعيناها تنطفئان فتغرق منه الحواس في الظّلام... وتموت الثّمار.

(4)

الزِّحـام

علبُ السّردين كلّ ألف علبـة في صندوق. العلبةُ الواحدة متخمةٌ بالسّمك الصّغير. هو بينها سمكة صغيرة... صغيرة. حشروه مراتٍ في عُلبٍ مماثلة. كلّها أسماك صغيرة جاورته إلاّ هذه العلبة فقد ربضَت على صدره فيها سمكةٌ كبيرة. عيناها مفتوحتان في شرَه.ماءُ اليم رحْبٌ ووحدها من تضربه بالزّعانف. سيزيد الزّحام لوهي التهمته. يحاول أن يتحرّك بعيدًا إلاّ أنّ صدَره مثقلٌ بها. صدرها الكبير تشعُّ منه حرارةٌ حَرِيفة تجذبُه إليها كلّما فكّر في الهرب.

عندما انفتحت العلبةُ قفز إلى البرّ فاستوقفته يدٌ وزنها رطل. ضحكَت عن فكٍّ فاحت منه رائحة الدّماء.

- لا تتظاهر بالغباء.

- أنا؟ أنا طفل.

- أحبّ الأطفال في سنّك... حليبُ الجِمال يُسكرني.

- الجِمال؟ النّاقة هي الّتي لها أثداء.

- لهذا أحبّ الجِمال... فأنا لي أثداء.

«ذلك الصّدرُ ضيَق من حَجم العلبة والسّرير في الغرفة _لو هي أصرّت_ سيتحطّم تحت جرمها الكبير».

- الطّقسُ بارد.

- سأضمّك بين ذراعي.

«مرحبا بالدّفء. سيزيد الزّحام في العلبة... سيولد السّمك الصّغير... ولكن مرحبا بالدّفء»

(5)

عرشُ الجَمال

في أيامها الماضية كانوا يغطّون العنب حتّى لا تراه الصّراصير أو العيون. فقط كانوا يغطّونه إلى حين ينضج وتسيل رائحتُه مع النّسيم فيُقبِلُ الفَراش؛ ثمّ تتقدّم يدُ المشتري فتعصرُه الأصابع الخشنة قبل أن يغيب في البطون الجائعة. حلالٌ على الّذي يدفع الثّمن؛ أمّا الصّراصيرُ فليس معها نقود. الفَراش هو الآخر يبحث عن مصدر الرّائحة الذّكيّة وجيوبُه فارغة.... كانوا يغطّون العنبَ ثمّ يوجّهون به إلى الصّناديق فتدمع لمرآه العيون؛أمّا اليوم فيظلّ مكشوفًا وهو حصرم؛حتّى بعد أن ينضج ويملأ عبيره الوجود. تغسلُه الشّمس بعناية للفراش الّذي يحطّ عليه أو للصّراصيرالّتي لها من حفلة الإهمال نصيب وقسمة عادلة.

بالأمس فقط وقعَت عيناها على إعلان لمسابقة أجمل صورة. انتعش قلبُها الخامل. دار برأسها منظرُ الفراشات وهي تحطُّ بألوانها الزّاهية على إطار الصّورة صانعةً منها أجمل لوحة. حتّى الصّراصير بدأت تزحف، تودُّ لو تأكل هاتيك العينين، أما الشّمس فراحت تسكبُ نورَها في وجه اللّيل الزّاحف ناحية الوجه الجميل.

ذهبت لتتسلّم الجائزة. أصرّوا أن تأتي صاحبة الصّورة بنفسها. تبسَّمت حال وصولها عن فمٍ خربٍ من الأسنان؛ ثمّ خرجت وهي تحمل في صدرها شعورًا يوازي أحلى يومٍ من أيّام الشّباب بعد أن سطعَ وهي في السّبعين.

(6)

تلك المرأةُ... أمّه

هذه المدينة كلّها أنوار، هكذا تراها العين، ولكنّها ملأى بالقطط... القططُ تموء. لاتموء إلاّ في الظّلمة، وكلّما ادلهمّت ظنّ أنّ هناكَ أطفالا يصرخون لشيء يقبض على رقابهم؛ فيجوس في البعيد ليراها فيجدها مجرّدَ قطط.... عندما تراه تكشّر بصوت مسموع فيجفل إلى النّور، ويتذكّر المرأةَ تركها في البيت والّتي تصرّ على أنّها أمّه. لكنّها ليست أوّل شيء تعرّف به؛ فهناك الظّلمة الّتي سجن فيها تسعة أشهرٍ طوال. بكى أثناءها، وبكى فلم تخرجه تلك المرأة من ظلماته بل وأطفأت الشّموع لينتشرَ الظّلام أكثر... عندما تسلّل متدثرًا باللّيل تلقفته امرأةٌ كانت تضحك من أخرى كانت تبكي. هي ذاتها من تدّعي أنّها أمّه. تحتلُّ البيتَ وتنيره قبل حلول اللّيل بكثير؛ فهي تخاف ظلامًا جلدته بسوطهِ تسعة أشهر طوال.... ليست المدينة كلّها مضاءة، فهناك يرى القططَ وهناك يأوي الظّلام.السّماء ملآى بالنّجوم بينما تحتَ السّماء يسكنُ الظّلام. قد صعدوا إلى القمر تحملُهم أشعةُ الشّمس، وعادوا يتراودون عن المريخ... سيصعدون ويصعدون، فهناك في القمر مكانٌ للقطط، وهناك ظلام.في المريخ أيضا مكان قطط وهناك ظلام.هناك أطفال يصرخون مثله ولعلّه مثلهم قد تركَ امرأةً في البيت تدّعي أنّها أمّه بحجة تسعة أشهرٍ طوال قضاها في الظّلمة؛ قبل أن ترحل ولا تعود بنورها الّذي سبب هذه الظّلمة».

15 نيسان 1970